

UNIVERSAL
LIBRARY

OU 190029

UNIVERSAL
LIBRARY

القضية المصرية

من سنة ١٩٢١ الى سنة ١٩٢٣

العاصفة*

إن قلبي يرتعد خوفاً و فرقا ، أسمع قمععةً في جوف السماء فهل هي نذير العاصفة التي يريد الله أن يرسلها علينا ؟ أرى الوجوه شاحبة ، والعيون حائرة ، والجباه عابسة ، فهل شعر الناس بويل مقبل انقبضت له صدورهم ، واقشعرت له جلودهم ؟

ما هذا المنظر المرعب المخيف ؟ ما هذه الضوضاء المرتفعة بالمجادلات والمناقشات في المجتمعات العامة والخاصة ؟ ومن هم هؤلاء الذين يتصارعون ويتجادبون ويينغي بعضهم على بعض ؟ إن كانوا مصريين فويل لمصر وأهلها ومستقبل الحياة فيها بعد اليوم ، هذا هو شأن الأمم البائدة في أدوار سقوطها واضمحلالها ، وفي ساعة وقوفها على حافة الهوة العميقة لقد ظننت في ساعة من ساعات حياتي أنني قد أمنت على مصر أبد الدهر ، وكان قلبي يستطير فرحاً وسروراً كلما سمعت تلك (الجوقة) الموسيقية الجميلة تنغى في أرجائها بنغمة واحدة وتوقيع واحد ، وكنت أصغى إليها بسرور واغتنباط إصغاء العاشق المفارق الى تغريد الحمام المترنمة فوق أفنانها ، ثم مالبت أن شعرت أن النغمة قد اختلفت ، والتوقيع قد اضطرب ، فذُعرت وارتعت ، ورفعت رأسي فاذا أنا في « بنز طنية » وإذا الناس جميعاً في كنيسة « أياصوفيا » يتناقشون ويتجادلون جداً شديداً في مسألة الطبيعة

* كتبت على أثر انشقاق المشقين عن الوفد المصري وإزماعهم محاربة سعد باشا رئيس الوفد تنفيذاً للارادة الانكليزية التي كانت متألمة أشد الالم من صلابة الزعيم وعناده في التمسك بحقوق الوطن

والطبيعتين ، وأبواب المدينة تقف تحت ضربات معاول العدو فلا يسمعون لها صوتا

كنا جميعاً ، وكان الشمل منتظماً ، وكان كل ما يعزينا عن بؤسنا وشقائنا منظر تلك الوحدة الجميلة التي كنا نُشرفُ على روضتها الزاهرة الغناء من نوافذ سجننا فتَهون علينا همومنا وآلامنا ، ولم يكن منظرُ في العالم أجمل ولا أبداع من منظر تلك الدموع الرقراقة التي كانت تتلألأ في عيوننا جميعاً ، لأنها كانت في الحقيقة دموع السرور والاعتباط بأحدانا واتفاقنا ، ووحدة كلتنا ، وقوة جامعتنا

لا تزال العاصفة تدوى وتعصف ، ولا يزال البناء يضطرب ويهتز ، فليت شعري هل يتهاوى ويعود الى سكونه واستقراره ؟ أم قدر له السقوط كما قدر لأمثاله من الأبنية في عهود التاريخ الغابرة ؟

ها هو سعد باشا يمسك البناء بيده أن يتداعى ويتهدم ، ولكنه قد تعب جداً ، ونال منه الجهد والنصب ، لأن الحمل ثقيل ولأن المهاميين من خصومه المصريين معتزون بالقوة الأجنبية وهي فوق طاقته واحتماله ، فهل تستطيع الأمة أن تمد يدها إليه وتعينه على عمله الشاق ؟

هنالك قوتان هائلتان جداً ، قوة العدو الخارج مستترة ، وقوة العدو الداخل ظاهرة ، وهما تعملان معاً بنظام واحد ، وفكر واحد ، هو أن تُسلمنا أخراهما لأولاهما ، فلنزحف اليهما بقوة أعظم من قوتهما شأنًا ، وأجل خطراً ، وهي قوة العقيدة الراسخة ، والايمان الثابت ، والثقة بالنفس ، والأمل الواسع ، والثبات على المبدأ ، نظفّر بهما معاً ، ونقض عليهما جميعاً ، فلا يبقى لهما عين ولا أثر

إن الساسة الانجليز يريدون أن يمزقوا شمل وحدتنا الوطنية التي بدلنا في سبيلها الشيء الكثير من ذات أنفسنا وذات أيدينا ليستثمروا شقاءنا وآلامنا فهل نسمح لهم بذلك ؟

لا ، فقد أصبحت الأمة غير الأمة ، والعقول غير العقول ، والأفهام غير الأفهام ، وليست هذه النهضة التي نهضناها اليوم ترديداً لأصوات القائلين ، أو تقليداً للحركات الناهضين ، أو فصلاً تمثيلاً ، أو لعبة بهلوانية ، وإنما هي عقيدة راسخة في النفس رسوخ الايمان في نفوس المؤمنين ، فليطلبوا لهم صفقة غير هذه الصفقة ، في سوق غير هذه السوق ، فمأ نحن بسلع تباع وتُشترى ، ولا بمأذبة عامة يهوى إليها الغادون والرائحون

إننا لم نجاهد يوم جاهدنا من أجلهم ، بل من أجل وطننا ، ولم نغنم في معاركنا التي أدرناها هذه الوحدة الشريفة لنضعها يوم نظفر بها في أيديهم ، يمزقون شملها ، ويشوهون صورتها ، ويلعبون بها لعب الصوالج بالأكر

محال أن نسمح لهم بها طائعين مختارين ، فهي حياتنا وروحنا ، وأمن ماتمك أيدينا ، وخير ما استفدنا من جهادنا ، بل كل ما استفدناه منه ، وسندود عنها ذود الأمم الرؤوم عن واحدنا ، والعدراء العفيفة عن عرضها ، وسنبدل

في سبيل استبقائها في أيدينا فوق ما بدلنا في سبيل الحصول عليها ليس من السهل علينا ولا مما تحتمله أطواقنا أن يتحدث الناس عنا - وقد بدأوا يتحدثون - أن تلك النهضة التي نهضناها إنما كانت رواية تمثيلية خلبنا بها عقول المتفرجين ساعة من الزمان ، حتى إذا نزل الستار عليها إذا الوجوه الوجوه ، والصور الصور ، وإذا الداء القديم ، والمرض العضال

إن الشرق لم يشق بالجهل ولا بالضعف كما يقولون ، فقدما عاش الضعفاء والجهلاء أحراراً مستقلين بفضل اتحادهم وقوة جامعتهم ، بل لأنه يوجد في كل شعب من شعوبه أمثال هؤلاء الأقسام الذين ابتلينا بهم في مصر خبثاء الاغراض والمقاصد ، موتى العواطف والمشاعر ، لا يتألمون إلا لأنفسهم ، ولا يبكون إلا على نقص في أموالهم وثمراتهم والشعب المصرى أول شعب شرقى نهض نهضة سياسية في هذا العصر ، ثم مشت الشعوب الشرقية بعد ذلك على أثره ، فيجب أن يكون أول شعب يعرف كيف يحق الدسيسة الكامنة بين أحشائه ، لتتعلم منه الشعوب الأخرى كيف تمحق الدسائس الكامنة بين أحشائها فيعود بالفخرين ، ويلبس التاجين

إننا لا نريد أن نحارب المنشقين والخارجين ، فالقوة التي لا قبل لنا بها من وراءهم تحميهم ، ولا أن نجادلهم ، فان لهم تحت جلدة وجوههم ذخيرة من السهجة والصفاقة كافية لانكار أن الأرض أرض ، والسماء سماء ، وأن هناك فرقاً بين لون الليل ولون النهار ، بل نريد أن نقى أنفسنا شر دسائسهم ومكائدهم ، ولا سبيل لنا الى ذلك إلا إذا أعرضنا عنهم ، وصنا أنظارنا عن رؤية وجوههم ، وأسماعنا عن سماع أصواتهم ، كما يتعوذ المتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فان فعلنا فقد انتصرنا انتصاراً عظيماً لم نوفق الى مثله في جميع أدوار تاريخنا من عهد « سيزستريس » حتى اليوم ، وإلا فما خلق الله في العالم خلقاً أهون على الله وعلى الناس منا

إلى خصوم سعد باشا*

١

سعد باشا خصم السياسة الانجليزية في مصر ، وعدوها الألد ، ما في ذلك شك ولا ريب ، فجميع خصومه السياسيين من المصريين أصدقاء لتلك السياسة ، وأعوان لها على أمتهم

هذا هو الذى أستطيع أن أفهمه ويفهمه الناس جميعاً ، ولا فرق عندى بين أن توضع فى عنقى جامعة أقاد بها الى دار المارستان لأقضى فيها بقية أيام حياتى ، وبين أن أفهم غير ذلك

فاشتموا يا خصوم سعد سعداً ما شتمتم ، وافتمنوا فى النيل من كرامته ما أردتم ، فلامعنى لذلك عندنا إلا أنكم آله صماء فى يد السياسة الانكليزية ، تتولون بالنيابة عنها زحزحة العقبة الكبرى التى تعترض طريقها ، وتعرقل مساعيها ، وتقف سدا حائلاً دون تنفيذ تلك الفكرة الجهنمية الهائلة ، فكرة تسجيل الحماية الانكليزية على مصر ، واحلفوا بالله جهد أيمانكم أنكم وطنيون مخلصون ، ما خلق الله بين أرضه وسماائه خلقاً أظهر قلباً ، ولا أنقى سريرة ، ولا أنبل مة تصداً منكم ، وأنكم لا تريدون بما تفعلون إلاخير الوطن وأهله ، وهناء الامة وسعادتها ، فليس بمغن ذلك عنكم عندنا شيئاً ، لأن

* كتبت هذه السلسلة فى غضون المعركة الهائلة التى دارت بين الزعيم سعد باشا تعضده الامة المصرية وبين عدلى باشا رئيس الحكومة ورئيس المنشقين تعضده القوة الانكليزية وقد ذاق فيها الشعب أشد أنواع العذاب وأفظه صنوف الاستبداد والاضطهاد

الوطني لا يجارب الوطني ، ولا يبتغى له الفوائل ، ولا ينصب الجبائل لهدمه
ونسفه

دعوى الوطنية كلمة بسيطة تصدر من الفم بسهولة ، كما يتنفس
المتنفس ، ويتنهد المتنهد ، وقد نطق بها جميع الناس في مصر حتى «سكينة»
مجرمة الاسكندرية ، فقد زعمت أنها إنما كانت تخدم الوطن بقتل النساء
العاهرات ليعتبر بمصر عن الحرائر الشريفات فلا يسقطن في مثل ماسقطن
فيه ، فهي دعوى محتاجة دائماً الى برهان ، وبرهانها الوحيد الذي نستطيع
أن نتعقله بلا تكلف ولا تعمل ، ولا فلسفة ولا حدلقة ، هو مجافاة السياسة
الانجليزية ، والانحراف عنها ، والتجهّم لها ، وسلوك كل طريق غير طريقها ،
وما دتم متفقين معها في اعتبار سعد باشا خصماً سياسياً خطراً يجب هدمه
وإسقاطه ، فأتم أعوانها وأنصارها ، ومحال أن تكونوا أعواننا وأنصارنا
السياسة الانجليزية تخنق الحرية السياسية في مصر ، وتضرب على أيدي
الكانيين ، وأسنة الناطقين ، وعقول المفكرين ، وتأبى الا أن تسوق الناس
جميعاً في طريق السياسة التي ترضاها لنفسها ، وسعد باشا يحتاج كل يوم على
ذلك ، ويصرخ الصرخات الهائلات التي ترتجف لها جوانب الارض ، وتهتز
لها أركان السماء ، وأتم سكوت صامتون ، لا تحتجون ولا تفضبون ، فهو
الوطني المخلص من دونكم

بيننا وبينكم أمر واحد ، إن أنتم فعلتموه نلتم ما شئتم من حبنا ورضانا ،
وإكرامنا وإجلالنا ، ونزلتم من نفوسنا المنزلة التي ينزلها الوطنيون المخلصون ،
وهو أن تعقدوا اجتماعاً عاماً تكتمبون فيه احتجاجاً شديداً للهجة الى الحكومة
الانجليزية على بقاء الأحكام العرفية في مصر حتى اليوم ، وعلى القوانين

الاستثنائية ، وقانون المطبوعات ، وتقييد حرية الخطابة والكتابة ، ومنع المظاهرات السلمية ، والاجتماعات السياسية ، واعتبار الوطنية جريمة تعاقب عليها المحاكم العسكرية والنظامية ، ثم تحتمون احتجاجكم بهذه الكلمة « إننا لا نقبل مفاوضة سياسية تجرى بين فريقين ، أحدهما سجين في سجن مظلم ضيق ، لا يستطيع التنفس فيه ولا الحركة ، والآخر سجان قاس مستبد يجرد على رأسه سيف القوة والقهر ويملي عليه ما يريد ويشتهي »

هذا هو البرهان الوحيد الذي تستطيعون أن تقنعونا من طريقه بوطنيتكم وإخلاصكم لأمتكم ووطنكم ، وأنكم قوم أحرار أباة متشبعون بروح العدل والشرف

فان لم تفعلوا فاندنوا لنا — ولنا العذر الواسع في ذلك — أن نعتبركم أعداءنا وأعداء حريتنا واستقلالنا ، وأن نتمسك بالإخلاص للرجل الذي يذود عنا ، ويجاهد في سبيلنا ، ويحارب ظالمينا

أندرون متى نتخلى عن سعد باشا ونخذله ونرتاب في صدقه وإخلاصه؟ يوم ترضى عنه السياسة الانكليزية ، وتذود عنه الصحف الانكليزية ، وتثنى عليه الدوائر الانكليزية . وتدافع عنه القوة الانكليزية ، وتستحيل نفسه الى نفس انكليزية يحس باحساسها ويشعر بشعورها ، ويتحرك بحركتها ، ويسكن بسكونها ، ويوم تضمه الحكومة الانكليزية الى صدرها ، وتحنو عليه حنو الوالدة المشفقة على طفلها الصغير ، معتقدة أن حياتها في حياته ، وموتها في موته ، وما دام سعد باشا باقيا في صفوفنا لم يفارقنا ولم يتخل عنا ، فمن الخبل والسفاهة وسقوط النفس أن نفارقه ونتخلى عنه ، فان عجز عن أن ينفعنا بشيء في قضيتنا فلا أقل من أن يشفي غليلنا

بتدغيص ظالمينا ، ولا شيء ألد للنفوس ولا أشهى اليها من تنغيص الظالمين
 ماذا تنعمون من سعد باشا أيها القوم ؟ وأي جناية جناها عليكم في
 أنفسكم أو في أمتكم فتحملوا له بين جو المحكم هذه الموجدة وهذه البغضاء ؟
 ليس سعد باشا هو الذي اغتصب بلادكم ، واستأسر أوطانكم ، وأذل
 أعناقكم ، وأرغم أنوفكم ، وخنق الحرية السياسية في مجامعكم العامة ،
 ومجالسكم الخاصة ، فما يستطيع أن ينطق ناظق ، ولأن يكتب كاتب ، إلا
 إيماء وتعريضاً

ليس سعد باشا هو الذي لعب بعقول فريق من أعضاء الوفد وأغرام
 بالانفصال عن الجامعة الوطنية والخروج عليها ليتوصل بذلك إلى تمزيق
 شمل الامة وتفريق وحدتها ، وليس هو الذي استثمر بدسائسه ومكائده
 طمع الطامعين ، وجبن الجبناء ، وغباوة الأغبياء ، ليستعين بهم على خراب
 الوطن ودماره

ليس سعد باشا خصمكم ، بل خصومكم أولئك الذين يفرونكم به ،
 ويسلطونكم عليه ، لأنهم يعلمون أن الأمة لا تفلح بغير زعيم ، وأن
 لا زعيم فيها يغنى غناؤه ، ويسد مكانه ، فان ظفروا به فقد ظفروا بالامة
 جميعها ، وحلوا العقدة التي عجزوا عن حلها أربعين عاماً ، فحولوا سهامكم
 إلى خصومكم ، ووجهوا ضرباتكم إلى المرقب الذي تتساقط منه السهام عليكم
 ارحموا أمتكم ولا تشيروا حفيظتها بأهانة زعيمها ونصيرها الباقي لها
 بعد تخلي جميع أنصارها وأعوانها عنها ، ولا تتمزوا فرصة ضعفها وعجزها
 فتدفعوها إلى إحدى السوءتين ، إما الغضب الذي ليس من مصلحتها ،

وإما الذل الذي هو فوق طاقتها ، واذكروا كيف يكون شأنكم غداً أمام أنفسكم وأمام ضمايركم إن تمت لأعدائكم الغاية التي يروونها من مصر على يديكم ، لا قدر الله ولا سمح ، بل كيف يكون بكاؤكم وعويلكم على وطنكم وبلادكم ، حينما تستيقظون من رقدتكم ، وتستفيقون من سكرتكم ، فتعلمون أن العدو قد اقتحم البلد ، وأنكم أنتم الذين فتحت له أبوابه بأيديكم

إلى خصوم سعد باشا

٢

والله ما ندرى ما هي دالتكم علينا ، وصنيعتكم عندنا ، ونعمتكم التي قلتمت بها أعناقنا ، فتطلبوا إلينا كل يوم في خطبكم وبياناتكم ورسائلكم وكل ما تهتف به أسنتكم وأقلامكم أن نفض من حول سعد باشا ونلتف من حولكم ، ونخذه ونصرم ، ونفارق طاعته إلى طاعتكم

لسعد باشا على الأمة ثلاث أياد لا تستطيع أن تنساها مدى الدهر ، أنه أسس الوحدة المصرية التي عجزت عنها القرون الثلاثة عشر الماضية ، وأنه نقل الفكرة الوطنية من دور الأمانى والأحلام إلى دور الجهد والعمل ، وأنه نشر الدعوة الوطنية في أنحاء العالم كله حتى وجدت فيه مسألة تسمى « المسألة المصرية » إن لم تتحقق فيها الآمال اليوم فغداً ، فإذا قدمتم أنتم إلينا من الخدم ، وقلتمت به أعناقنا من المهن ؟

هبونا كما تزعموننا قوماً سذجاً بسطاء ، طاشى العقول والاحلام ،

لا نستطيع أن نعيش بغير معبود نعبده ، ونخضع له ، أليس من الطبيعي
والمعقول أن نهضل عبادة الشمس التي نرى نورها، ونشعر بحرارتها ، ونتمتع
بضياؤها على عبادة الحشرات التي لانكاد نشعر بوجودها ، ولا نرى لها
فائدة في شؤون حياتنا ؟

من أنتم أيها القوم ؟ وأى شأن لكم عندنا ؟ وما هي الصلة النفسية
التي تجمع بيننا وبينكم ؟ وأين مواقفكم التي وقفتموها في خدمة قضيتنا ؟
وصحائفكم التي شغلتموها من تاريخ حياتنا ؟ وما الذي يعرفنا منكم ، ويهزنا من
شؤونكم ، نعبدكم ونستسلم إليكم ، ونضع في أيديكم قيادنا ، وقياد حاضرنا
ومستقبلنا ؟

إننا نعرفكم جميعا بأشخاصكم وأعيانكم ، ونعرف جميع ميولكم وأهوائكم ،
والجهة التي تتجهون إليها دائما في شؤون حياتكم ، والسياسة التي تظاهرونها
وتماثلونها منذ برزتم الى الوجود حتى اليوم ، ونعرف أنكم ذلك الفريق
الذي يعثر به المستعمر دائما في كل أمة يريد القضاء عليها فيستعين به على
أغراضه ومآربه لا أكثر من ذلك ولا أقل ، فكيف تطمعون في أن
تتخذكم زعماء لنا في سياستنا ، بل كيف تطمعون في أن نعدكم مصريين
تشترون معنا في شعورنا واحساسنا

سعد باشا يبني الوحدة الوطنية ، وأنتم تهدمونها ، سعد باشا يحارب
خصومنا ويناوأهم ، وأنتم توالونهم وتظاهرونهم ، سعد باشا يبكي دوماً يوم
يستشهد شهيد منا في سبيل وطنه ، وأنتم تشمتون به وتفرحون ، وتقولون هذا
جزء المخاطرة والمجازفة ، سعد باشا يثير الثائرة كل يوم على الأحكام
العرفية ، والقوانين الاستثنائية ، وأنتم ترضون عنها ، بل تؤيدونها ، بل تشترون

فى وضع موادها ، سعد باشا يريد أن تتطهر الارادة المصرية من رذائل الكذب والنفاق، والظلم والارهاق ، وأنتم تفرونها بارتكاب هذه الرذائل جميعها ، وتماثلونها عليها ، وتفضبون وتصخبون كلما شعرتم أن يداً من الايدى تحاول زحزحة الستار عنها ، سعد باشا يصيح فى جميع مواقفه ومشاهده قائلاً يجب أن يكون الشعب حراً مطلقاً يختار لنفسه السياسة التى يريدونها ، وأنتم تصيحون قائلين يجب أن يساق الشعب الى السياسة التى تراد منه ، لأنه شعب جاهل منحط لا يفهم مصلحته ، ولا يستطيع تقديرها ، سعد باشا يربى الأمة على الفضيلة وشرف الخلق ويث فيها روح الهمة والعزيمة والانفة والصدق والصراحة والشرف والاباء ، وأنتم تفسدون أخلاقها وتمزقون أديم آدابها ، وتطلبون من القاضى أن يحكم بغير ما يعتقد ، ومن الشاهد أن يشهد بغير ما يعلم ، ومن الفقيه أن يقضى بما يخالف أحكام دينه وقواعده ، ومن الموظف أن يعتمد فى رقيه وتقدمه على المداهنة والمداجاة ، لاعلى الكفاية والعمل ، ومن التلميذ أن يطرق الى نجاحه فى الامتحان باب التأييد والتوقيع ، لا باب الجد والاجتهاد ، ومن انفلاح أن يبيع ذمته وضميره برتبة أو لقب أو قضاء مصلحة مالية ، ومن الكاتب أن يحول قلمه الذى وضعته الامة فى يده ليدافع به عنها ، ويندود عن مصلحتها ، الى سهم رائش مسموم يصيب به صميم قلبها ، وتطلبون من الأمة كلها أن تتجرد من شخصيتها وهويتها ، وتتحول الى قطيع من الاغنام يسير به كل راع فى الطريق التى يريدونها

سعد باشا يقول فيصدق ، وما عرفنا له أ كذوبة قط منذ عرفناه واتصلنا به حتى اليوم ، وأنتم تطلعون علينا كل يوم بأ كذوبة جديدة لا ينتهى العجب منها حتى تتبعها أختها ، حتى سقطتم من أعيننا سقطة لم تسقطها طائفة

من قبلكم ، وحتى قال عنكم بعض أصحاب الرأي من الشيوخ المخنكين
إنكم قد أفسدتم من أخلاق الأمة في بضعة شهور فوق ما أفسد الاحتلال
الانكليزي منها في أربعين عاماً

فهل من أجل هذا نفض من حول سعد باشا وثلث من حولكم ،
ونخذله وننصركم ، ونزاع عن رأسه تاج الزعامة لنضعه فوق رؤوسكم
إنكم إذن تريدون أن تقررُوا أن أرض مصر قد استعالت الى دار
مارستان كبرى يعيش فيها أربعة عشر مليوناً من الخجولين ، وأن تُشهدوا
العالم كله على أننا أمة بلهاء ممرورة لا تستحق استقلالاً كاملاً ولا ناقصاً ، بل
لا تستحق البقاء في هذا الوجود

ليس لنا أيها القوم زعيم نعبده ونخضع له غير المبدأ ، وما ولينا سعد
باشا زعامتنا الا لأنه ينزل على ارادتنا ، وإرادتنا القاطعة ألا ينزل على
ارادتكُم ، ولا يأخذ برأيكم ، ولا يسير في طريق يعلم أنكم تسرون فيها ،
وما دام هذا شأنه فحال أن نغدر به ، ونخفر ذمته ، ومحال أن نخلى بينكم

وبينه ، ونسمح لكم بشفاء غليلكم منه ، ونحن شهود نسمع ونرى
عجباً لكم ، فيكم العالم والمستنير والفيلسوف والكهل المجرب والشيخ
المحنك ، فكيف فاتكم جميعاً أن تفهموا أن للطبيعة سنة لا يمكن تحويلها ولا
تبديلها ، وأن تحويل أمة مستنيرة ذكية عددها أربعة عشر مليوناً من
الحياة الى الموت في بضعة شهور ليس بالأمر السهل الهين ، وأن نقل الزعامة
من يد الى يد ليس من الاشياء الخاضعة لقانون الحول والقوة ، بل لقانون
الانتخاب الطبيعي الذي تخضع له الجمعية البشرية منذ أشرقت عليها شمس
الحياة حتى اليوم ، وأن توجيه النفس الانسانية من شعور الى ضده لا يأتي

من طريق القوة والقهر ، بل من طريق الحجة والاقناع ، أو من طريق الاستدراج والاستهواء على الأقل

ما أشد غروركم بأنفسكم أيها القوم ! وما أشد احتقاركم لامتكم ! أمّا غروركم بأنفسكم فلا أنكم ظننتم أنكم بالقاء بعض الخطب ، وكتابة بعض الرسائل ، وتدبير بعض المكائد ، وانفاق بعض الاموال ، تستطيعون تحويل الامة المصرية بأجمعها من حب سعد الى بغضه ، ومن الثقة به الى الثقة بغيره ، ومن التمسك والتشدد في المطالب الوطنية ، الى القناعة والتهاون فيها ، ومن سوء الظن بالسياسة الانكليزية ، الى حسن الظن بها ، ومن السخط على مشروع ملتر ، الى الرضا عنه والاعتباط به ، بدون استناد الى حجة ولا برهان ، كأن ما تُفضون به الى الناس آيات منزلة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وما طمع يوما صاحب الآيات المنزلة نفسه جل جلاله أن يؤمن الناس بآياته ويدعنوا لها دون أن يدعمها بالحجة والبرهان ، وأما احتقاركم لامتكم فهو اعتقادكم أنها أمة بسيطة ساذجة تأتي بها كلمة ، وتذهب بها كلمة ، وتطير بها فكرة ، وتهبط بها أخرى ، وكأنما أنتم تقولون في أنفسكم إن الروح الوطنية التي تختلج في صدرها إنما هي روح صناعية غرستها الحوادث والظروف فلم لا تنتزعها الحوادث والظروف كذلك ، وإن الوحدة الوطنية التي تربط بين أجزائها إنما هي وحدة كاذبة موهومة فلم لا نبدها ونمزق شملها بوهم من الاوهام الكاذبة ، وإن المنزلة التي نالها سعد باشا فيها إنما نالها بالفسطة والثرثرة فلم لا نسلط عليها السفسة والثرثرة فنذهبها بها ، وما دام هذا مقدار عقلها وتصورها فمن السهل علينا أن نعيدها بأننا نحن الذين سننيلها جميع آمالها ومطالبها لتطمئن الينا ، حتى اذا حان

وقت الوفاء بوعدنا قدمنا لها القيد الحديدي الذي أعدناه لها ، وسميناها
 خلخالاً ذهبياً ، فتصدق وتغتبط وتستطير فرحاً وسروراً
 ان كان هذا هو ما تضمرون في أنفسكم ، وما أحسبكم تضمرون غيره ،
 فوالله ما احتقر أحدٌ في العالم هذه الامة احتقاركم ، ولا رأى شعب من
 الشعوب فيها حتى الشعب الذي يستعبد لها ويستند لها هذا الرأي الذي ترونها ،
 وائذنوا لي أن أقول لكم بعد ذلك إنه ما دامت أفكاركم وآراؤكم في
 المجتمع وشئونه ، والامم وطبائعها ، والنفوس ومشاعرها ، لا يمكن أن تتجاوز
 هذا القدر الذي وصلت اليه ، فليس بينكم رجل واحد يستطيع أن يكون
 زعيماً لامة ، أو زعيماً لقرية ، أو زعيماً لنفسه

إلى خصوم سعد باشا

٣

إن كنتم تريدون أن تجردوا سيف القوة والتهر على رؤوسنا لتستلوا
 من بين أشدنا كلمات الحمد لكم ، والثناء عليكم ، والاعتراف بأنكم أصدق
 الناس ووطنية ، وأشدهم إخلاصاً ، وأعدلهم حكماً ، وأسدّهم رأياً ، وأبعدهم
 نظراً ، وأنكم خير من يتولى قيادة القضية المصرية حتى يبلغ بها الغاية المرجوة
 لها ، فلنكم ما شئتم وفوق ما شئتم ، ولا عار علينا في ذلك ، ففينا الضعيف والعاجز
 والمضطر وصاحب الحاجة ، ومن قبلكم عاجلت محكمة التفتيش في اسبانيا
 من أهلها مثل ما تعالجون منا اليوم ، فنطق الموحد بكلمة التثليث ، ولبس

صاحب العمامة القلنسوة ، وعلق حامل المصحف الصليب ، ومن قبل ذلك أرغم كثير من الملوك الظلمة العلماء والفقهاء على اتباع المذاهب والنحل التي ينتحلونها ، فلم يجدوا بداً من الاذعان لهم ، والنزول على حكمهم ، غير أن لنا عندكم رجاء واحداً لا نضرع إليكم في شيء سواه ، وهو أن تعترفوا بالطريقة التي حملتمونا بها على الاذعان والتسليم ، وألا تكذبوا علينا فتشروا في الناس أنكم أقتنمونا فاقتنعنا ، وأقمتم لنا الحجة فسلمنا ، وأننا آمننا بكم طائعين مختارين ، فتلك النكبة العظمى ، والرزية الكبرى ، التي لا قبل لنا باحتمالها ، وخير لنا أن يتحدث الناس عنا أننا ضعفنا وجبنا بين أيديكم ، فلم نستطع إلا النزول على حكمكم ، والتسليم لكم بما تريدون ، من أن يقولوا عنا إننا انخدعنا بكم ، وصدقنا أكاذبيكم

لا نطبق أن يتحدث الناس عنا أننا صدقنا أن أصدقاء الحماية بالامس أعداؤها اليوم ، وان الذين أعمدوا في صدورنا تلك الخناجر المسمومة قد تحولوا اليوم إلى أطباء راحمين يحاولون انتزاعها منا ، وان الفارين من صفوف الجيش الوطنى إلى صفوف جيش العدو ليحاربونا معه ، ويعينوه علينا ، ووطنيون مخلصون ، وان الذين يرمون الأمة بالجهل والغباوة والانتقياذ إلى زعمائها انتقياذ القطيع لرأعيه بلا تصور ولا ادراك أصدقاء لها ، يطفون عليها ، ويتمنون لها الخير والسعادة ، وان اتفاق السياستين سياسة الحكومة المصرية وتوسياذ الحكومة الانكليزية فى الأقوال والأفعال ، والشعور والاحساس ، والميول والرغبات ، والأساليب والتصورات ، من باب توارذ الخواطر ، ووقوع الحافر على الحافر ، كما يقول البلاغيون ، وان الديموقراطية الصحيحة هى أن تخضع أكرتية الأمة العظمى لأقليتها الضئيلة المتهاككة ، فان لم تفعل فهى

المنقسمة والمنشقة والمنحرفة عن سواء السبيل ، وأن الزعيم الوطنى يجب أن يكون رجلاً بسيطاً مجرداً من صفات البطولة والتبوغ والشخصية القوية ، والذكاء الخارق ، ليصلح لزعامة الأمة وقيادتها ، وأنه كان من الواجب على سعد باشا كلما برز اليه رجل من الرجال وقال له تنحّ لى عن زعامة الامة وقيادتها لأتولاهابداً منك ، وأمدّنى فوق ذلك بقوتك ونفوذك ونفتك لأستطيع أن أنزل من نفوس الأمة المنزلة التى تنزلها ، وأتمتع بحبها واحترامها ، ووجب عليه أن يفعل ذلك ، فان أبى فهو مستبد جبار لا تقع تبعه انقسام الأمة وتفرقها إلا على رأسه ، ولا يؤخذ بها أحد سواه ، وأن المفاوضات الذى لا يمثل الا فئة قليلة من الشعب لا تجرؤ أن ترفع صوتها إلا بين جدران الحصون ونحت ظلال السيوف أعظم قوة وأكبر نفوذاً وأثبت قدماً وأقدر على استنزال مفاوضه على حكمه من الزعيم الذى يمثل أربعة عشر مليوناً يغضبون لغضبه ، ويرضون لرضاه ، وأن الواجب علينا أن نصبر ونترث وأن لانسى الظن بأعدائنا قبل أن نرى منهم عين الغدر ، ولا بأس أن نسمح لهم بالزحف علينا ، بل باجتياز العقبات التى تعترض طريقهم الينا ، بل باحتلال القلاع والحصون المشرفة علينا ، بل بتوجيه فوهات مدافعهم إلى منازلنا وبيوتنا ، فاذا شرعوا فى إلقاء القنابل وقذفها علمنا انهم يريدون السوء بنا فحاربناهم وقاومناهم ، وأن سعد باشا زعيم الأمة ورئيسها الممدى وموضوع حبها واحترامها واجلالها واعظامها ظن أن إلى الرأسة يتلطف شوقاً اليها ، ويتهالك وجداً عليها ، أما عدلى باشا يريد الأمة وشريدها فهو رجل زاهد فيها ، قال لها ، ما يحتمل أن يشاك شركة فى سبيلها

لانطيق أن يتحدث الناس عنا أننا صدقناكم في شيء من هذا كله، ولو أننا فعلنا لوضعنا في أيديكم مستنداً قوياً هو أقوى في دلالته على غباوتنا وجهلتنا من جميع المستندات التي جمعتموها حتى اليوم لتكون في يد السياسة الانكليزية أسلحة تحتج بها علينا وتُلقي بها في وجوه الذين يزعمون أننا أمة عاقلة رشيدة نستطيع أن نحكم أنفسنا بأنفسنا

إصنعوا بنا ما شئتم ، وافتشوا في ظلمنا وارهاقنا ما أردتم ، وخذوا من عرائض الثقة والتأييد مائلاًون به غرف وزارة الخارجية الانكليزية من أرضها إلى سائبها ، فلك إرادة الله التي لا محيص عنها ، ولكن اياكم أن تزعموا أننا أعطيناكم من قلوبنا وأفئدتنا ما أعطيناكم من ألسنتنا ، فذلك مانغضب له كل الغضب، وما يملأ صدورنا غيظاً وحنقاً

نقسم لكم بالله أننا مارأينا في حياتنا ولا في تاريخنا الحاضر أو الغابر أطمع ولا أشره منكم ! ألم يكفكم مساعدة الدهر لكم ، ونزوله على حكمكم ، وأن القوة الانجليزية من ورائكم تمدكم بكل ماتتروحون من سلاح وعدة ، وأن في استطاعتكم متى شئتم أن تُقهرونا على كل ماتريدون دون أن يحاسبكم عليه محاسب ، أو يراقبكم مراقب، حتى أردتم أن تجمعوا إلى متعة الظلم الوحشى الذى تنعمون به متعة السمعة الحسنة، والذكري الطيبة !

تريدون أن تظلموا فيسمى الناس ظلمكم عدلاً ، وأن تقتلوا فيقبل المقتول أيديكم اعترافاً بفضلكم ، وأن تخنلسوا الثقة من الناس اختلاساً فيشكر لكم هؤلاء الناس تفضلكم بقبول الهدية التي قدموها اليكم ، وأن تضعوا الاغلال الثقيلة في عنق الامة قترقص فرحاً وسروراً بالعقود اللؤلؤية الجميلة الذى قلدتم بها جيدها ، وأن تملأوا الجو هواء ثقيلًا خانقاً

فيستنشقه الناس هواء طلقاً عليلاً ، وأن تضعوا على قرص الشمس حجاً
كثيفاً حتى ما ينبعث منها شعاع واحد فيتهيج الناظرون بمنظر نورها
المتلألئ الساطع

لقد رمت مراماً لم يرمه أحد قبلكم ، وبلغتم في الانانية والذاتية
الغاية التي لا غاية وراها ، فآه لو استطعتم أن تفهموا ، وتيسر لكم أن
تعلموا ، أن المستحيل لا يمكن أن يكون ممكناً ، والممكن لا يمكن أن يكون
مستحيلاً ، وألا وجود لشيء في العالم غير الحقيقة المجردة :

آه لو فهمتم أن هذه الامة التي تحتقرونها وتزدرونها ، وتصفونها بالجهل
والغباوة ، والغرارة والبساطة ، أمة عظيمة جداً لا مثيل لها بين الأمم في سلامة
فطرتها ، وذكاء قلبها ، ودقة شعورها واحساسها ، وسمو خصائصها ومزاياها ،
وأن عيبها الوحيد الذي لا عيب فيها سواه أنكم من أبنائها وسلائقها ،
وأنكم العقبة الكؤود التي لانزال تعثر بها كما حاولت المضي في طريقها ،
والسعي الى الغاية التي هيأتها الاقدار لها ، ولولاكم ولولا أنكم اليد التي
يضر بها العدو بها ، والقنطرة التي يجتازها اليها ، لما استطاع أن يلمس شعرة من
رأسها ، ولا أن يخطو خطوة في أرضها ، فحق نفرغ منكم ، ومتى يحكم الله بيننا
وبينكم

لا عذر لكم بعد اليوم ، فقد قلم كل شيء ، وفعلتم كل شيء ، واستفدتم
جميع ما وهبكم الله من القوى العقلية والمادية ستة شهور كاملة في سبيل
إسقاط سعد باشا فلم تسقطوه ، وفي حمل الامة على التهاون في حقها فلم تستطيعوا ،
فاذا تنتظرون ؟

أمصمبون أتم على الاستمرار في خطتكم هذه الى النهاية ؟ أعازمون

على أن تعتبروا الامة كمية مهملة لاحساب لها ، وان تؤلفوا من أنفسكم جمعية صغيرة تزعمون أنها الامة باجمعها لتصدق على المشروع الانجليزي المنتظر !

ان كان هذا هو ماتريدون ، وما أحسبكم تريدون غيره ، فاعلموا ان للامة شأنها المستقل عن شأنكم وشأن مشروعكم وجمعيتكم ، وان ماتعملونه لا ينفعكم ، ولا ينفع أصدقاءكم ، ولا يغني عنكم ولا عنهم شيئا

اليوم الاسود *

أتدرون ماذا فعلتم بالأمس في أسيوط وماذا كنتم تريدون أن تفعلوا في كل بلد ينزله سعد باشا في رحلته لو وجدتم إلى ذلك سبيلا ؟ إنكم قد وقعتم بأنفسكم على صك اعترافكم بعجزكم وقصوركم ، وفراغ أيديكم من كل حول وقوة ، وأن هذا منتهى ما في وسعكم ، وكل ماتملك أيمانكم أبعده ستة شهور كاملة تكتبون وتخطبون ، وتدسون وتكيدون ، وتلفقون وتكذبون ، وتصادرون حرية الألسنة والأقلام ، والنظر والتفكير ، وتنثرون ذهب المعز وتجردون سيفه في كل بقعة وأرض ، لتكوين حزب سياسي عظيم ، يعضد الانجليز في سياستهم ، ويعين الوزارة على البقاء في مركزها ، ويقارع حزب سعد باشا مقارعة البطل للبطل ، ينكشف الستار عنكم

• كتبت على أثر تلك المؤامرة الفظيعة التي تمت بالاتفاق بين القوة الانكليزية والحكومة المصرية وأفراد من مجرمي المنشقين في اسيوط وكان يراد منها هلاك سعد باشا رمس معه عند وصوله في رحلته الى هذه المدينة فسلمه الله إلا أن كثيرا من رجاله وأنصاره قتلوا وأغرقت في النهر فتم بذلك العار على هؤلاء المجرمين أبد الدهر

فإذا أنتم رؤساء عصابات ، وإذا الحزبُ الذى كونه فئدة من اللصوص
المجرمين حملة الهراوات والنبايت ، وسكان الأحرار والغابات ، يستطيع
كل انسان يأمن جانب الحكومة ويملاً يده منها وإن كان أجبن الجبناء ،
وأضعف الضعفاء ، أن يستعين بهم على مثل ما استعتم بهم عليه ؟

أهذا هو الحزب السياسى العظيم الذى هيأتموه للفصل فى القضية
المصرية ، والبت فى حاضر مصر ومستقبلها ؟

أهذا هو الحزب المفكر العامل الذى يمشى الى أغراضه السياسية بخطوات
هادئة رزينة يعجز عن مثلها الجمهور الأهورج المستطار الذى تنعون عليه
كل يوم طيشه وخفته ، وجهله ورعونته ؟

أما إني لو كنت مكان رئيس الوزارة الذى تزعمون أنكم حماه
ودعاه ، وأنصار سياسته ، وعماد وزارته ، لأحسنت تأديبكم على غشكم
إياى ، وخذيعتكم لى ، حينما عتم أنكم رؤساء مطاعون فى عشائركم وقبائلكم ،
وأن فى استطاعتكم تكوين حزب سياسى قوى يغمر بقوته وعظمته ونبله
وشرفه حزب « الرعاع » الذى كونه سعد باشا ، فإذا أنتم لاشىء ، وإذا
الحزب الشريف النبيل الذى كونه وسميته بسموه باسمى ، ونسبته بسموه لى ،
جماعة من قطاع الطرق يترفع عن الاتصال بهم عمدة قرية صغيرة ، فضلا
عن رئيس حكومة عظيمة ، ولكن ما أدرانا ألا يكون زعيمكم مثلكم
سخافة وجهلا

ما هكذا تساق الأمم أهب البلاء ، ولا هكذا تقاد الشعوب ، ولا
بمثل هذه الاساليب توجه الأفكار الى الخطط السياسية ، وما سمعنا قط

إلا في عرفكم واصطلاحكم أن النبأيت والعصى والخناجر والبنادق وسيلة من وسائل التأخير والاقناع!

حاربوا الرجل بالألسنة والأقلام كما يحاربكم ، وقارعوه بالحجة والبرهان كما يقارعكم ، وحاجّوه بالصراحة والصدق والنبيل والشرف كما يحاجّكم ، فإن أمكنكم ذلك فذاك ، والا فلا تلجأوا الى الضربة الخائنة الغادرة التي يلجأ اليها المبارز الجبان حينما يعجز عن الثبات أمام خصمه ، ويشعر بتفوقه عليه ما أقسامكم! وما أغلظ أكبادهم! أمن أجل تقديم مستند بسيط للسياسة الانجليزية تعتمد عليه في اثبات أن الرجل الذي يفاوضونه اليوم يمثل الامة المصرية أو أكثريتها ، وأن الاتفاق الذي يعقدونه معه كيفما كان شأنه اتفاق سائغ مشروع، ومن أجل أن يتيسر لوكيل وزارة الخارجية الانجليزية أن يصرح في مجلس النواب بوجود فتنة في مصر بين حزب زغلول باشا وحزب الحكومة، تسفكون دماء أبناء وطنكم، وتقتربون أكبر جريمة تعاقب عليها الشرائع السموية والارضية ، وتلبسون أنفسكم وأبناءكم وذرائعكم العار الذي لا يبلى أبد الدهر!

أليس لكم أولاد تخافون أن ينتقم الله منكم فيهم، ونساء تخشون أن يذرفن الدموع غداً على فلذات أكبادهن بما أذرقن من دموع أولئك الامهات المساكين اللواتي فجعتوهن في أولادهن ، وفلذات أكبادهن؟ أين هم العدليون الذين تتحدثون عنهم ، وتحاولون اقناع السياسة الانجليزية بوجودهم ، وفي أى أرض يقطنون ، وتحتم أى سماء يعيشون! أمن أجل بضع شراذم من الضعفاء المخدوعين ، وآخرين من المتملقين المداهنين ، الذين يوجد مثلهم في كل أمة وشعب، والذين يطيطرون مع القوة

حيث طارت ، ويقعون معها حيث وقعت ، ويمضون كل حكومة حتى حكومة نبيرون ، تزعمون أن الأمة منقسمة على نفسها ، وانها فريقان سعديون وعدليون ؟

لم يتكون حزب سياسى فى مصر تحت زعامة عدلى باشا والناس لا يعرفون من أمر الرجل شيئاً سوى أن السياسة الانجليزية اختارته لرآسة الوزارة والمفاوضة فى المسئلة المصرية ، فان ذكر ذا كره منهم شيئاً من ماضيه لا يذكرو له سوى أنه كان عضواً مهماً فى وزارة الحماية التى ضربت على مصر فى سنة ١٩١٤ وانه أول من نغر فى جنح الظلام ذلك السد المتين الذى أقامته الامة المصرية فى وجه لجنة ملنر ، وانه أول رئيس وزارة اجترأت على مفاوضة الانجليز فى المسئلة المصرية رغم إرادة الأمة وإرادة وكلائها

لم يتكون حزب سياسى يتشبع لعدلى باشا ويحتمد فى مناصره وتأييده ، ويحمل النبائيت والعصى لمحاربة خصومه ، قبل أن يحرك يداً أو لساناً فى القضية المصرية ، وقبل أن يعلم الناس ماهو صانع فيها غداً ، أبني بالوعد الذى وعدهم به ، أم تحول الحوائل بينه وبين الوفاء ، وهل الثقة إلا نتيجة طبيعية للعمل والاحسان فيه ؟

لم يتنكر الناس لسعد باشا ويتحولون من مسلمين له إلى محاربين ، هل خان الامانة التى عهدوا بها اليه ؟ أم قصر فى المطالبة بحقهم ؟ والتعبير عن آمالهم وأمانهم ؟ أم وعدهم بالنزول على رغبتهم فقادهم بالسيف والنار إلى النزول على رغبتهم ؟ أم حول الحرب التى كانت بينهم وبين أعدائهم الى حرب بينهم وبين أنفسهم ؟ أم وضع الكأتم فى أفواههم فلا ينطقون ؟ والأغلال فى أيديهم فلا يتحركون ؟ أم نفض عليهم حياتهم الاجتماعية

وحول ابتساماتهم الى دموع ، ومسراتهم الى أحزان وآلام ، وآمالهم في الحياة السعيدة الى يأس وكمد

لم يصدروا قرارهم العام في أمره يوم احتفلوا بقدومه من أوروبا احتفالاً لم يظفر به ملك متوج ، ولا فاتح كبير ، فأى الاحداث أحدث بعد ذلك فيتنكروا له ، ويضمروا له البغضاء بين جوانحهم ؟

لم يزل يهتف بالاستقلال التام لبلاده كما كان يفعل من قبل ؟
 لم يزل يقارع الأعداء الغاصبين في حاضره ، كما كان يقارعهم في ماضيه ؟
 لم يحاولوا خداعه والعبث بضميره واستنزاله عن صلابته وعناده في التمسك بحقوق بلاده فلم يفتقر ولم ينخدع ، وآثر أن يستهدف لهذه الحرب الهائلة التي يثيرها عليه أعداؤه وأنصار أعدائه من بني وطنه على أن يفرط في ذرة واحدة من حقوق الوطن المقدسة ؟

لم يكن في استطاعته أن يقبل رآسة الوزارة حينما عرضوا عليه ل يتمتع برؤية رجال الادارة الذين يتنافسون اليوم في الاساءة اليه والنيل من كرامته جانين على بابه يتلقون أوامره ويطيرون بها في كل شرق ومغرب فلم يفعل ، وفضل أن يكون فرداً من أفراد أمته واقفاً بجانبها يشاركها في همومها وآلامها ، ويشرب معها بالكاس التي تشرب منها ، على أن يكون آله في يد السياسة الانجليزية لقتلها ، وخنق حريتها

أمن أجل هذا يبغضه الناس ويتنكرون له ولا يقنعون منه بذلك حتى يحملوا في وجهه الهراوات والمعصى ليمنعوه من النزول ببلادهم ؟

هل تنازلوا عن مطالبهم الوطنية ونفضوا أيديهم منها ، فهم ينكرون عليه نسكه بها وتشده فيها ؟

هل صفت مياه الود بينهم وبين الانجليز ، وحل الحب والوثام بينهما محل البغضاء والشحناء ، فهم لا يريدون منه أن يكدر عليهم هذا الصفاء ؟ هل كانوا يجاملون فيه السياسة الانكليزية يوم أجلوه وأعظموه وأحلوه ذلك المحل الاعظم من نفوسهم ، فلما تنكرت له وجافته تنكروا له معها ، وغضبوا غضبها ؟

هل كانت وطنيتهم نوبة من نوبات الجنون كما كان يشيع عنهم أعداؤهم ، فلما استفاقوا رأوا أن ينتقموا من ذلك الانسان الذى أثار فى نفوسهم تلك العاطفة وأجج نارها فى صدورهم ؟

اللهم لاهذا ولا ذاك ، وكل ما فى المسألة أن الوزارة تريد البقاء فى مركزها ، ولا يمكنها البقاء فيه الا اذا نفذت المشروع الانجليزى المنتظر ، ولا سبيل لها الى ذلك الا اذا فضت الامة من حول سعد باشا وحملتها على الالتفاف من حولها وتأييد سياستها ، وقد عجزت عن أن تصل الى ذلك ، فهى تزعمه وتدعيه ، وتمثل هذه الرواية الغريبة التى هى أشبه الاشياء بقصة ذلك الرجل الذى أراد أن يتوسل الى قلب حبيبتة بعمل من أعمال البطولة التى يجهبها النساء ويمنجن الرجال عطفهن من أجلها ، كأن ينحيتها من غرق أو ينقذها من هوة ، أو يخلصها من أيدي اللصوص ، وهو أعجز الناس عن ذلك ، فاستأجر جماعة من الغوغاء واتفق معهم على تمثيل رواية خلاصتها أنهم يكمنون لها فى طريق مرورها تحت جناح الظلام حتى اذا مرت بعربتها هجموا عليها وتظاهروا بأنهم يريدون قتلها وسلبها فيمر هو فى تلك الساعة كأنه سائر فى طريقه مصادفة واتفقا فيهمم عليهم هجمة شديدة تلقى

الرعب في قلوبهم ، ويطلق عليهم مسدسه المحشو بالرصاص الكاذب ، فيخافون منه ، ويفرون بين يديه ، فرار الجؤذر بين يدي الاسد الرئبال ، وقد مثل الرواية كما وضعها ، وكاد ينجح في تمثيلها ، لولا أن الفتاة كانت ذكية الفؤاد ، فقرأت على وجهه حين دنا منها آية التصنع والتكلف ، فلم تحفل به ، ولم تقدم له كلمة شكر على بطولته وشجاعته ، وسارت في طريقها وهي تعرب في الضحك عليه ، وعلى غرابة تصوراته

هذه هي المسألة لأكثر من ذلك ولا أقل

ما أجراً كم أيها القوم على الله وعلى الناس أجمعين !

أتكذبون على أربعة عشر مليوناً من النفوس أحياء يرزقون يقولون لكم بأستهم وأقلامهم وبجميع ما يعرفون من الطرق والوسائل إنهم أنصار سعد باشا وأعداء السياسة الانجليزية فتقولون لهم لابل أنتم أنصار عدلى باشا وأصدقاء السياسة الانجليزية

أيسيل النيل وشاطئاه بالهاتفين للرجل ، والمرحبين به ، والخائضين عباب الماء الى سفينته ، مخاطرين بأنفسهم عليهم يرون وجهه ، أو يسمعون صوته ، حتى احتجتم في دفعهم وردهم الى ضرب الرصاص ، وإعمال السيوف ، ثم تقولون بعد ذلك إن البلاد تكره سعد باشا ولا تطيق رؤيته ؟ أترون بأعينكم لمعان السيوف في أيدي رجال البوليس ، وتسمعون بأذانكم طلقات بنادقهم ، وتشاهدون مطاردتهم الناس ، وهدمهم الزينات ، ووضعهم العقبات ، ثم تقولون بعد ذلك ان الادارة كانت على الحياض ، وان حزب عدلى باشا القوى العظيم في أسيوط هو الذى أرغمها على منع سعد باشا من النزول الى البر ؟ دعونا من سياسة الدسائس والمكائد ، والمواربة والمداجاة ، والتلفيق

والتأويل ، فهي سياسة عقيمة لا تصلح تربة مصر الطيبة الطاهرة لنباتها واستثمارها ، ودعونا من أساليب المكر والدهاء ، والخبث والرياء ، ومن قتل القتل والسير وراء نعشه ، وخنق الحرية والبكاء عليها ، والاخلال بالامن العام باسم حفظه وصيانته، وانتهاك حرمان الناس باسم حمايتها والذود عنها ، وأمثال ذلك من الاساليب العتيقة البالية التي ذهبت وانقضت عصرها بانقضاء عصور الجهالة والسذاجة ، وخذوا بنا في الحقائق المجردة الواضحة التي لا لبس فيها ولا إبهام

ارفعوا الاحكام العرفية ، والقوانين الاستثنائية، ودعوا الناس احراراً يفكرون كيف يريدون، ويقولون ما يشاؤون، مما لا يخرج عن دائرة القانون والنظام ، نصدق أنكم قوم احرار تقدسون الحرية وتجلون شأنها ترحزحوا قليلا عن تلك الحائط الأجنبية التي تسندون اليها ظهوركم، وتستظلون بظلها ، وتضربون تحت حمايتها ، وليكن النضال بيننا وبينكم وجهاً لوجه ، نصدق أنكم أصحاب رأى وعقيدة ، وانكم انما تعملون بما توحيه اليكم آراؤكم وأفكاركم

أشيروا على الوزارة بقطع المفاوضات، وقولوا لها إن الأمة غير راضية عنها، ولا عن نتيجتها ، نصدق أنكم تنزلون على إرادة الأمة ورغبتها، وانكم تحترمون اجماعها ، وتنزلون على حكمها

اعترفوا بالحقيقة الواقعة التي تعلمونها جميعاً ، وهي أن حزب الحكومة في مصر حزب مصنوع موضوع لو نفّس عنه الخناق قليلا وتخلّى عنه العاملان المهمان ذهب « المعز » وسيفه لحظة واحدة لطار في أجواز الفضاء ، ولما بقي منه في مكانه إلا أفراد قلائل لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد

واليدين، وان مصر لا يوجد فيها إلا حزب واحد تطارده الحكومة وعمالها وأنصارها، نصدق أنكم قوم مخلصون، لا تقولون إلا ما تعتقدون هذه هي السبيل الوحيدة لما تطلبون اليها من الثقة بكم، والاعتماد عليكم، واحترام آرائكم وأفكاركم، واجلال مقاصدكم وغاياتكم، فان فعلتم فانتم اخواننا وأصدقائنا، وأكرم الناس علينا، وإلا فقد علمتم رأينا فيكم، وما نحن بظالمين ولا عادين، ونسأل الله لكم الهداية والتوفيق

جريمة الانشقاق*

لو أنكم أيها المنشقون بقيتم تحت لواء زعيمكم لم تفارقوه ولم تنتقضوا عليه إن لم يكن ذلك من أجله فمن أجل كرامة الأمة وشرفها، والابقاء على وحدتها وجامعتها، ولو أنكم إذ أيتيم ألا أن تفارقوه فارقتموه بهدوء وسكون لم تشيروا النائرة عليه ولم تطعنوا خلقه وشرفه وكرامته تلك الطعنات الداميات التي لا يحتمل وقعها في فؤاده أحقر الناس وأصغرهم في عين نفسه شأنًا، ولو أنكم يا رجال الوزارة بدلا من أن ترسلوا رشدى باشا اليه يوم استعصى عليكم أمره ليؤذنه بالحرب وليقول له إننا قد قررنا رفض شروطك وإغفال أمرك واطراحك والاستقلال بالعمل من دونك رغم أنك وأهف الأمة التي تعزز بها أرسلتموه الى دار الوكالة البريطانية ليقول لصاحبها إننا قد

* كتبت على أثر فشل عدلى باشا وشيخته في المفاوضات الرسمية التي مزقوا في سبيلها وحدة الأمة وأهلكوا مالا يحصى من رجالها ونساءها وأطفالها قتلا وسجنا وتعديبا ثم كانت النتيجة أن عرض الانجليز عليهم مشروعا أقل من المشروع الذى عرضوه على سعد باشا فرفضه وكانوا على استعداد لقبوله لولا خوفهم من الأمة وغضبها

عجزنا عن اقناع سعد باشا بالتنازل عن شروطه التي اشترطها للمفاوضة معكم ، وليس في استطاعتنا وهو زعيم الأمة وقائدها وقلبها الخفاق أن نخاطر بمجافاته ومناواته إلا إذا قررنا المخاطرة بوحدة الأمة وجامعتها ، وذلك ما لا نرضاه لأنفسنا ، وما يباه علينا شرفنا وإخلاصنا ، فها هي ذى وزارتكم نخذوها اليكم ، فهي ونحن وكل ما تملك أيدينا فدى لأمتنا ووطننا ، ولو أنكم إذ أيتم الا البقاء في مراكنكم ، وإلا أن تذهبوا إلى المفاوضة رغم إرادة الأمة وإرادة زعيمها ذهبتم باسمكم وحدثكم دون أن تفتحوا باب العرائض والوفود وتدخلوا الأمة في شأن الثقة والتأييد ، فان عدم لها بالنجاح شكرت لكم فضلكم ، وأولتكم ودها وثقتها ، والا فلا يعنينا من فشلكم وإخفاقكم شئ

لو أن ذلك كله كان لبقيت الأمة طول حياتها في موقفها الجليل العظيم الذي وقفته في أعوامها الثلاثة الماضية ، موقف الاتحاد والتضامن ، والقوة والبأس ، والعزة والشرف ، ولظلت سائرة في طريق جهادها الوطني تحت قيادة زعيمها حتى تصل إلى الغاية التي رسمتها لنفسها ، أو تموت من دونها فأنتم يا خصوم سعد باشا وخصوم الأمة جميعها المسئولون عن ذلك الشمل المبدد ، والاديم الممزق ، والجامعة التي شوّه وجهها ، وزال رونقها وبهاؤها ، وعن حوادث الاسكندرية ووطنطا وأسيوط وجرجا وجميع المظالم التي نزلت بالوطنيين الأبرياء في الأشهر السبعة الماضية من قتل وسجن ، وإعدام وتشريد ، وتعذيب واضطهاد ، وعن تلك النهاية المحزنة الأليمة التي انتهت بها المفاوضة الأخيرة ، فاعترفوا بذلك ، ولا تكتموه الناس ، عسى أن تجدوا لكم في زوايا بعض القلوب مكاناً للرحمة بكم ، والاشفاق عليكم ، ولا

تحاولوا إلقاء التبعة على غيركم، فتضموا إلى جرائمكم الماضية جريمة العناد والاصرار

من الذى عهد اليكم بالاشتغال بقضية مصر السياسية ؟ وأين هو المؤتمر الوطنى أو الهيئة النيابية أو الجمعية الوطنية التى وكلت اليكم ذلك واختارتكم له ؟ ومتى كانت الشؤون السياسية ميداناً للتجارب والاختبارات ينزل فيه كل من أراد أن يجرب حذقه ومهارته ؟

إن الامة لم توكل فى قضيتها غير رجل واحد ، قد اختار بضعة أفراد منكم فيمن اختاره من أصدقائه ومعارفه للاستعانة بهم على عمله ، ثم لم يحمد أمرهم حين أحس منهم الغدر به وبالقضية المصرية فعزلهم وعزلتهم الامة معه ، فما هذا التثبيت البارد بعضوية الوفد ، والوكالة عن الامة ، والنطق باسمها ، والمفاوضة عنها ، والامة لاتعرفكم ، ولا تفهمكم ، ولا صلة نفسية بينها وبينكم ، ولم تعتقد فى وقت من أوقاتها أنكم وكلاؤها أو نوابها ، أو أمناؤها على سياستها ، حتى أوردتموها بالحاكم وفضولكم وسوء سياستكم هذا المورد الوبيل

لاتلوموا سعد باشا على فشلكم واخفاقكم ولوموا أنفسكم ، فقد أبلى الرجل البلاء العظيم فى نصحكم وتحذيركم ، وتنبأ لكم بكل ما وقع لكم اليوم كأنما كان يطالع صحيفة من صحائف الغيب فلم تكثر ثواله ، ولم تحفلوا بنصحه

قال لكم إن المفاوض الانجليزى لا يحفل ولا يعبأ الا بمفاوض يعتقد أنه يمثل أمته ، وينطق بلسانها ، نطقاً حقيقياً لا تمثيلاً ، فاتهمتموه بحب الراسة والسعى وراء الشخصيات ، ورميتموه بسوء النية والقصد

وقال لكم إن الانجليز لا يريدون بفتح باب المفاوضات معكم الاستعانة بكم على تمزيق شمل الامة وتبديد وحدتها ، وهي القوة الوحيدة التي تملكها ولا تملك غيرها ، وألاخير يرجى من هؤلاء القوم لكم ، فترتم في وجهه ، وسمحتم لانفسكم أن تسيئوا الظن به ، ولا تسيئوه بالانجليز وقال لكم احذروا أن نخطوا خطوة واحدة في طريق المفاوضات قبل أن تستوثقوا لانفسكم بمرسوم سلطاني يحدد موضوع المفاوضات ويكون أساسا لها ، فانكرتم ذلك عليه ، وزعمتم أن في أيديكم من الوعود المؤكدة والاقسام المغلظة ما يغنيكم عن هذا الاحتياط والاستيثاق

وقال لكم ان الانكليز يخافون أكثر مما يستحيون ، وأنهم لا يعرفون في السياسة مودة ولا اخاء ، وأنهم لا يريدون من استبدال مفاوض بمفاوض إلا الهرب من شدة الاول ، والطمع في لين الثاني ، فسفهم رأيهم ، وزعمتهم أنهم قوم ذوو أخلاق كريمة ، وآداب عالية ، وعواطف شريفة ، وأمزجة رقيقة ، وأنهم يمنحون الصديق الذي يحاسنهم ، أضعاف ما يمنحون العدو الذي يخاشنهم وقال لكم في نهاية الامر لا ارادة لى ولا لكم في ما تقضى به الامة ، وما تراه في شأنى وشأنكم ، فلنتحاكم اليها ، ولننزل جميعا على حكمها ، فأكبرتم ذلك منه ، وسميتموه رجلا نائرا متمردا لا يخضع لقانون ولا نظام قال لكم كل شيء ، وحذركم من كل شيء ، فلم تلومونه اليوم ، وتلقون تبعه اخفاقكم عليه ، ولم يملأ بغضه صدوركم حتى يصرفكم عن الالتفات الى عدوكم الحقيقي الذى لعب بكم ، وعبث بعقولكم ، وكون منكم جيشا جرارا محاربة أمتكم ، وتنغيص عيشها ، وتكدير صفائها ، حتى اذا قضى حاجته منكم ، وفرغ من تمزيق شمل الامة وصدع وحدتها على يدكم ، أدار

وجبه عنكم، ونبذكم بند النواة بلا رحمة ولا شفقة، وهذا هو المعنى الحقيقي للمفاوضة التي أجراها على أيديكم، وهذا هو كل الغرض المقصود منها

ليسأل عدلى باشا اللورد ملتر عن هذه النتيجة المحزنة التي انتهى إليها أمره، فهو الذي خدعه وغشه، ومنه الاماني الكاذبة، ووقف به على رأس ذلك الطريق الذي ظن أنه ينتهي به الى زعامة الأمة وقيادتها، ثم لم يلبث أن خذله وتخلي عنه، بل استقال من وظيفته حتى لا يتقيد بالوعد الذي وعده إياه

ليسأل المنشقون عدلى باشا عن السقطة الأدبية العظمى التي هوت بهم من سماء العزة والشرف، إلى حضيض المهانة والضعفة، فهو الذي زين لهم الانشقاق على زعيمهم، والخلاف عليه، وأغراهم بأخاذ خطة في السياسة غير خطته، ففعلوا فكان ذلك عاقبة أمرهم، وخاتمة مطافهم

ليسأل الوزراء جميعا المنشقين والوزراء عن خيبة الامل التي لحقت بهم، والصدمة الكبرى التي اصطدهتها آمالهم وأمانهم، فوهم الذين خلبوهم واستهووهم، وأطمعوهم في الجوائز والمنح، والوظائف والرتب، يوم يتم لهم الانتصار على أيديهم، فلام أدركوا ما أملوا، ولا هم بقوا في صفوف أمتهم يعملون معها، ويجاهدون في سبيلها

ليسأل كل منكم صاحبه عن نكبته التي نزلت به، ولا تسألوا سعد باشا عن شيء، ولا تلوموه في أمر، بل اشكروا له فضله عليكم، ويده عندكم، فلولاه ولولا جهاده ومعارضته، ووقوفه في وجهكم ووجه مشروعكم وقفة الأسد المصور، لتمت على يديكم الجريمة الكبرى، جريمة تسليم البلد الى أعدائه، ولسجل التاريخ لكم في صحائفه أنكم أصحاب تلك الجريمة ومقترفوها

أفهمتم الآن أن سعد باشا أصدق منكم نظراً ، وأعلى رأياً ، وأنفذ بصيرة في بواطن الاشياء ، وانه ما كان يعارضكم يوم عارضكم حياً في الراسة ، أو سعياً وراء الشخصيات كما كنتم تزعمون ، بل حرصاً على مصلحة البلد ، وضماً بخلصه وإنقاذه

أفهمتم الآن انه لو كان نزل على رأيكم وخضع لآهوامكم وأحلامكم — وهذا هو ذنبه الوحيد الذي تأخذونه به — لدفن معكم في الهوة التي دفنتم فيها اليوم ، ولم يبق في الامة من بعده صوت ينادى بحريتها واستقلالها أفهمتم الآن انه لا يوجد بينكم سياسى واحد يستطيع أن يكتنه بواطن السياسة ويستشف اعماقها ، ويحسن إدارة معركتها إدارة كافلة بفوز الامة وانتصارها ، او بانقاذها من خطر الوقوع في الاسر على الاقل ، وانه لو تم على يديكم اسقاط سعد باشا كما كنتم تريدون لطلال حزنكم وبكاؤكم يوم تطلبون غيره ليقوم مقامه ويملاً فراغه فلا تجدون

ماذا كان يظن أعضاء بعثتكم الرسمية بأنفسهم يوم ذهبوا للمفاوضة على الصورة التي ذهبوا عليها ، وكيف كانوا يتصورون ان المفاوض الانكليزى يعطيهم الاستقلال تاماً او ناقصاً وقد تقدموا اليه بيد مُصْفَرَةٍ من كل قوة يستطيع المفاوض ان يعتمد عليها في مقارعة خصمه واستنزاله على حكمه

لا يستطيعون ان يقولوا له ان الامة قوية مسلحة تستطيع ان تنتصف لنفسها بنفسها ان لم تنصفها ، لانه يعلم كما يعلمون أنها ضعيفة عزلاء لا تحمل من الاسلحة اكثر من عصي «الساحل» ونبايت « الحواتكة » ولا ان يقولوا له انها متحدة يدا واحدة والاتحاد قوة تقوم مقام القوة المادية ،

لانهم قدموا اليه قبل ذلك الوثائق والمستندات الدالة على انها منقسمة على نفسها وانهما فريقان سعيون وعدليون يقتتلون في كل مكان يلتقون فيه كما كان يفعل البروتستانت والكاثوليك في ايرلندا والمسلمون والوثنيون في الهند ، ولا ان يقولوا له انها متشدة في مطالبها الوطنية لا تقبل فيها مساومة ولا مهادنة ، لانهم قالوا له قبل ذلك وأقسموا على ما قالوا ان اكثريتها قد انفضت من حول سعد باشا والتفت من حولهم ، أى انها قد تحولت من خطة التشدد والتطرف الى خطة القناعة والاعتدال ، ولا أن يقولوا له إنها راقية متمدينة تستطيع أن تحكم نفسها بنفسها ، لأنه يعلم حق العلم الاساليب الوحشية التي اتخذوها في سبيل الحصول على عرائض الثقة التي قدموها اليه وماذا صنعوا بأمتهم في سبيلها ، فماذا يعنيه من أمرهم بعد ذلك ؟

لاراعكم الله أيها القوم ، ولا رعى يوماً اتصلنا بكم فيه ، فقد افسدتم علينا كل شأن من شؤون حياتنا ، وهدمتم بحمقكم وخرقكم وسوء رأيكم في لحظة واحدة ذلك البناء الفخيم الجميل الذي قضينا في بنائه ثلاثة أعوام كاملة ، ولم تقنعوا منا بذلك حتى جثم اليوم تمنون علينا بأن بعثتكم قد قطعت المفاوضات بشرف وإياء وأن لها الحق في الافتخار بذلك

مرحى مرحى ! ألم تكن المفاوضات مقطوعة من قبل اليوم على يد سعد باشا فهل كان غرض البعثة من ذهابها أن تقطعها مرة أخرى حتى اذا تم لها ذلك عادت تفخر بنفسها وتفخرون بها وتدعون الناس الى الاحتفال بها عند قدومها !

أتريدون أن نحتفل بها لنجدد بذلك عصر الجاهلية الاولى أيام ضراعة

الشعوب وذلها ، ومهانتها واستخذائها ، وتقبييلها يدضاربا حين يضربها ،
وشرب نخب انتصاره عليها !

أتريدون أن نحتفل بها ليتحدث الناس عنا أننا قدرضينا بجميع المظالم
التي نزلت بنا ، وأغضينا جفوننا على قذاها ، فيقطع فينا كل طامع ،
ويعبث بحقوقنا كل عابث !

أتريدون أن نحتفل بها لتبرز لنا كل يوم هيئة جديدة تفتح باب
المفاوضة في القضية المصرية ثم تقفله لتمتع بكلمات الثناء عليها ، ومشهد
الاحتفال بها ، ونحن فيما بين هذا وذاك هللكي ضائعون !

أتريدون ان نحتفل بها قبل ان نعلم هل نفضت يدها من المفاوضة إلى
الأبد ، أو أنها قطعتها اليوم لتصلها غدا ، وهل صرفت النظر عن عرض
مشروع كرزن على الأمة ، أم تريد عرضه من طريق غير طريقها ، وهل
الوزارة عازمة على البقاء في مركزها ، أم تريد ان تنحل لتتألف مرة ثانية
بصورة اخرى غير صورتها ليبقى لنا شقاؤنا وبلاؤنا الذي نحن فيه أبد
الدهر ، وهل برئنا من دأها تمام البرء ، ام لاتزال بقية منه كامنة في أعماق
صدورنا لانعلم ما الله صانع بها !

وبعد فأين هي المفاوضة التي تزعمون انها قامت بها ، أو انها قطعتها او
وصلتها ؟

إنها لم تفعل شيئاً سوى انها تقدمت لاداء الامتحان امام اللورد
كرزن في القدرة على حمل مشروعه الى الأمة وتنفيذه فيها فأخفقت
فعادت ادراجها

فهل هذا هو الفخر الذي تزعمونه لها ، وتتحكونها اياه ، وتريدون حملنا

بالاساليب الادارية المعهودة على الاحتفال بها من أجله ؟

إن كان تمزيق شمل الامة ، وتبديد وحدتها ، والاستعانة بالقوة الاجنبية على إخضاعها واذلالها، وسفك الدماء البريئة في الميادين والشوارع ، وزج الوطنيين المخلصين أفواجاً أفواجاً في أعماق السجون ، وابتياح الذمم والضائر ، ومحاوله إفساد الاخلاق القومية في جميع الدوائر والهيئات حتى في المدارس والمعابد والمحاكم ، والتفريق بين الوالد وولده ، والاخ وأخيه ، والصديق وصديقه ، والزوج وزوجه ، وافساد سياسة الامة عليها ، وإطاع أعدائها فيها ، والهبوط بالمفاوضات بعد ذلك كله وبعد تضحية جميع هذه الضحايا من مشروع ملنر الى مشروع كرزن ، مجدداً ونظراً يستحق أصحابه الاجلال والاعظام ، والاحتفاء والاحتفال ، فرحة الله على الفضيلة ، ولييك الباكون عليها وعلى مصيرها المحزن الاليم

كونوا أيها القوم كيفما شئتم ، وأضمروا لنا من الشرور ما أردتم ، ورتبوا لنا في أذهانكم كل يوم مكيدة جديدة ، أو دسياسة مبتكرة ، فحبال أن تنالوا منا منالا ، أو تصلوا من طريقنا الى غاية ، فسنبني بعون الله وقوته كل ماهدمتم ، ونصلح كل ما أفسدتم ، لا نضعف ولا نفتر ، ولا نهين ولا نياس ، فاخلقت الامم الال للجهاد ، ولا لذة للحياة الال بالعمل ، حتى يأتي عليكم ذلك اليوم الذي تقتنعون فيه تمام الاقتناع بأن في الامة رأياً عاماجدياً لا يسمح لرأس معوج يريد أن يرتفع على حسابها ، وحساب ظلمها واساءتها ، بالبروز من مكانه ، وأن لا قوة في مصر غير قوة الشعب ، ولا حكم فيها الال حكمه

عبرة الدهر *

الآن أمنت على مصر أبد الدهر ، وأيقنت أن الباطل ظل زائل
لأنبات له ، وأن الحق صخرة عاتية لاتزعزعها العواصف ، ولا تعبت بها
عاديات الايام

فقد مرتبى في غضون الاشهر الفاتمة ساعات أعترف انى خفت فيها
على الحق أن يقتاله الباطل ويصرعه ، عندما أشرفتُ على ذلك الميدان
الواسع الفسيح — ميدان المعركة السياسية المصرية — ورأيت ذلك
الجيش اللعجب العرمرم جيش الباطل زاحفاً بجياله ورجله ، وفي مقدمته القوة
الانجليزية بمدافعها وطياراتها ، وصواعقها واورجومها ، وفي مؤخرته القوة المصرية
ببنادقها وسيوفها ، وسياطها وعصيها ، وفي أحد جناحيه الوزارة يحيط بها
أنصارها وصنائعها ، وذوو الحاجة اليها ، وفي الجناح الآخر المنشقون يحيط
بهم خدمهم وفلاحوهم وأجراؤهم وأهلوم ، وفيما بين هذا وذلك الكتاب
الكاذبون ، والخطباء الخادعون ، والدعاة الخبيثاء ، والجواسيس الدهاة ،
والاحكام العرفية ، والمجالس العسكرية ، والقوانين الاستثنائية ، والاكاذيب
والأراجيف ، والصور والتهاويل ، وكل ما يمكن أن يسمى قوة يهجم بها
هاجم على خصمه ليسلبه في آن واحد قوة جسمه ، وقوة قلبه ، وقوة يقينه ،
وقد ذهبتُ لذلك الجيش في آفاق السماء جملجةٌ كجملجة الرعد القاصف ،
وانتشر له في جميع الأنحاء بريق يخطف الأبصار ، ويعشى الانظار ، فالتفتُ

* كتبت لمناسبة فشل المنشقين في المفاوضات الرسمية وتضعف امرهم بمد ذلك وانقضاء
أنصارهم من حولهم بعد فشلهم

إلى الجانب الآخر من الميدان ، فرأيت سعد باشا واقفاً في مكانه أعزل لا سلاح معه ، ولا يحيط به إلا سواد الأمة الاعزل مثله ، فانبعثت من صدرى صرخة الرعب والخوف ، وخيل إلى أن الرجل هالك هو وأمته ، مافى ذلك ريب ولا شك ، ثم هجم ذلك الجيش العظيم هجمته الكبرى التي لم يسمع بمثها في تاريخ هجوم الأقوياء على الضعفاء ، والتي استمرت سبعة شهور كاملة لاتهدأ ولا تقتر ، فثبت الزعيم في مكانه ثباتاً غريباً مدهشاً ، وكأننا استحال الى كرة فولاذية ملساء تتساقط عليها السهام ثم تنزلق عنها ، وربها أصابت جسمه بعض الجرحات ، ولكن لم يستطع سهم واحد أن ينفذ إلى قلبه ، وثبتت الأمة بثباته فلم تهن ولم تضعف ، ولم تعباً ولم تحتفل ، ولم تأخذ بلهها الصور والتماويل ، ولم تنل من نفسها الأكلذيب والأراجيف ، ولم تعبت بعقيدتها اللسنة الخالصة ، والاقلام الخلدعة ، وهاهى ذى الأيام قد أخذت تدور دورتها ، فانقلب الجيش المهاجم مدافعاً ، والجيش المدافع مهاجماً ، ولله فى خلقه شؤون ، أنظر اليهم هاهم ألاء يتقهقرون ، وإن كانوا لا يزالون يضربون ، هاهى ذى السنة خطبائهم تتلجلج فى أفواههم ، وأقلام كتابهم تضطرب فى أيديهم ، هاهى ذى وجوههم قد علمتها غبرة الموت ، وقلوبهم تتنزي بين جوانحهم تنزى الكرة فى أيدي ضاربيها ، هاهى ذى أصواتهم قد مازجها أنين محزن كأنين المحتضر ، وصرخاتهم قد استحالت الى عواء كهواء الذئب ، هاهم أولاء يخلطون ويهدون ، ويسبون ويشتمون ، ويصخبون ويحتدمون ، أى إنهم يلجأون الى السلاح الاخير الذى يلجأ اليه المتهور فى ساعته الأخيرة ، هاهم أولاء يخافون من كل شىء حتى من خطبة يخطبها أزهرى فى مسجد ، أو كلمة يلقيها طالب فى منزله ، أو صرخة

يصرخها صارخ في محفل ، ومن همس الهامس في أذن أخيه ، ونظرة
 صاحب في وجه صاحبه ، ومن قدوم بضعة أفراد من أعضاء مجلس
 النواب الانجليزى الأحرار الى مصر لا يملكون إلا قليلا من الحول
 والقوة ، ومن سفر الزعيم من بلد إلى بلد لا يحمل إلا قلبه ، ولا يملك إلا لسانه
 ما بالهم ، وما الذى دهام ! ومم يخافون ، والقوة فى أيديهم ، والأيام
 مواتية لهم ! والدهر نازل على حكمهم ، نعم ولكنهم مبطلون ، والباطل
 لا قوة له وإن اجتمعت فى يده جميع القوى

تلك عبرة الدهر التى يجب أن يعتبر بها أولادنا وأحفادنا من بعدنا
 فلتقرأوا يا أبناء الأجيال المقبلة هذه الصفحة المجيدة من تاريخ حياتنا
 لتعلموا أن رجلا واحداً من ابناء امتكم تمسك بالحق فاستطاع أن يثبت
 أمام أقوى قوة فى العالم ، وأن ثباته قد أنقذ مصر من أعظم نكبة كان
 يدّخرها لها الدهر فى طيات تصاريفه ، ولتُحنوا رءوسكم أمام هذه الذكري
 المجيدة إجلالا لها ، واعظاما لشأنها ، ولتجعلوها مثلكم الاعلى فى مستقبل
 حياتكم ، وعبرتكم البليغة التى تغنيكم عن جميع العظات والعب

الآن أمنت على مصر أبد الدهر ، فما فى العالم قوة تستطيع أن تهاجمها
 أعظم من هذه القوة ، وليس فى الامكان أن تحل بساحتها نكبة أهول
 من هذه النكبة ، وما أحسب إلا أن الله تعالى قد أراد أن يلوها ويختبرها
 فامتحنها بهذه المحنة الفادحة ليرى كيف يكون صبرها واحتمالها ، وقوة
 يقينها وإيمانها ، فيمنحها من حسن الجزاء ، على قدر ماتبذل من حسن
 البلاء ، وقد أبلت بلاء لم يبله أحد قبلها ، فلتنتظر الجزاء الاوفى ، والثوبة
 العظمى ، ولتهنأ منذ اليوم بالمستقبل الباهر السعيد

إلى أعدائنا *

١

نعم إنكم أقوىاء جدا ، بل لاتوجد قوة في العالم توازي قوتكم ، ولكننا على ضعفنا وخلق أيدينا من السلاح والعدة أقوى منكم ، لانكم حاربتمونا بسلاح الخديعة والمكر الذي ألفتهم أن تنتصروا به على الشعوب الشرقية قرونا عدة فانهم زتمهم أمامنا ، واستطاع هذا الشعب الشرقى الصغير حديث العهد بالسياسة وأساليبها ومناوراتها أن يدرك خبايا مقاصدكم ومراميككم ، وأن يمزق عن وجوهكم ذلك الستر الكشيف الذى كان يجلبها ، وأن يقول لكم بصوته العالى المرتفع : لا أقبل الخدع والألاعيب ، فإما الاستقلال تاما صريحا لاربية فيه ، أو لا شئ

إننا أقوى منكم لانكم لم تستطيعوا أن تخدعونا عن أنفسنا ، ولا أن تستنزلونا عن عقيدتنا وقيمتنا ، أما تلك القوة الميكانيكية التى تهرعون بها فى شوارع البلاد وأزقتها ، وتملأون بها وجه الارض وجو السماء ، فهى مما لا يفخر به الفاجر ، ولا يُدل به المدل ، لانها شئ ، والصفات النفسية والمزايا العقلية شئ آخر

هل استطعتم بعد مقامكم بيننا اربعين عاما ان تصطنعوا رجلا واحداً

* كتبت هذه السلسلة على أثر نفي سعد باشا وصحبه بأمر السلطة الانكليزية تمهيداً لتأليف وزارة أخرى من أولئك المنشقين تستطيع أن تنفذ مشروع كرزى بصورة أخرى بحيث لا تجرد أمامها من يفضحها ويكشف خبيثتها

من بين هذه الملايين الكثيرة يحبكم ويخلص لكم؟

هل استطعتم بعد ان سقط ذلك البرقع الكثيف عن وجوهكم
وبدت للناس صفحاتكم ان تجدوا ثمانية اشخاص يؤلفون لكم الوزارة
التي تريدونها لتستعينوا بها على تنفيذ مشروعكم؟

هل تستطيعون أن تزعموا انكم على ثقة تامة باخلاص شخص واحد
من هؤلاء الموظفين الكثيرين الذين قضى عليهم سوء حظهم ان يعملوا
معكم ، ويخضعوا لسلطتكم ، حتى الذين غمرتموهم منهم بالنعم ، وملاؤتم عليهم
ديارهم رغداً وهناءً ؟

هل تستطيعون ان تبتاعوا بأموالكم الكثيرة التي لاحد لها قلبا
مصرياً صمياً يتولى نشر دعوتكم ، وتأيد سياستكم ، كما تفعلون في كل
مكان حتى في اوربا وأميركا ؟

إذن انتم ضعفاء ، ونحن اقوياء ، ولنا ان نفخر بهذه القوة التي نعتمد
فيها على شرف اخلاقنا ، وعزة نفوسنا ، ومتانة عقيدتنا ، وشدة إخلاصنا
لوطننا ، وليس لكم أن تفخروا بتلك القوة التي تعمدون فيها على السيف
والنار كما كان يفعل « الهون » في أوربا ، « والمنول » في آسيا ، لانها اقرب
إلى صفات الوحشية وغرائزها ، منها إلى روح المدنية ومزاجها

نعم انكم اعتقلتم سعد باشا ، ولكن بعد أن صرع زعماءكم وقادتكم
في ميدان السياسة ، وأفسد عليكم تلك المؤامرة العظيمة التي كنتم تريدون
بها اعتقال مصر واستعبادها الى الابد ، فقد صودر سعد باشا واعتقل ،
ولكن مصر قد نجت

في استطاعتكم أن تصبغوا وجه مصر بالدماء ، وأن تملأوا بطنها
بالاشلاء ، ولكن ليس في استطاعتكم أن تقفوا نظرات الاحتقار والازدراء
التي نلقبها عليكم حين نراكم ، ولا أن تطفئوا نار الحقد والموجدة التي
تنبعث من ألسنتنا وصدورنا الى وجوهكم ، ولا أن تنالوا منالا من تلك
العقيدة الراسخة في قلوبنا ، وهي أنكم أضعف الضعفاء ، وان كنتم أقوى
الاقوياء ، وان هذه القوة التي تعتمدون عليها وتدلّون بها ليست قوة
السياسة ، ولا قوة الفكر ، ولا قوة التدبير ، وانما هي قوة الشر والغضب
اقتلونا ولكن بأيديكم لا بأيدينا ، ألقوا الوزارة ولكن من رجالكم
لا من رجالنا ، املكوا علينا كل شيء إلا قلوبنا وأفتدتنا ، احكمونا باسم
الأحكام العرفية ، والأساليب العسكرية ، لا باسم القوانين الشرعية ،
والأحكام السموية والأرضية ، افتخروا بأنكم قمتم الحركة المصرية ،
وأنكم أخفتم الناس وأرهبتموهم ، ولكن لا تفخروا بأنكم حلتم مشكلة
مصر وفرغتم من قضيتها

إنكم لا تحاربوننا من أجل احتلال البلاد فأنتم محتلوها ، ولا من أجل
الاستيلاء على مواردها وأرزاقها فهي جميعها تحت سلطتكم وسيطرتكم ،
ولا من أجل إطفاء الثورة وقمعها ، فالأمة اتى لا سلاح لها لا ثورة فيها ،
ولكنكم تحاربوننا من أجل إرغامنا على الاعتراف بمركزكم الشرعى
في مصر ، ومادتم لم تصلوا الى هذه الغاية بعد بذلك ما وهبكم الله من
دهاء سياسى وحيولة عقلية في هذا السبيل فنحن المنتصرون ، وأنتم
المنخدلون

الى أعدائنا

٢

ماذا جنى الرجل عليكم فتنفوه الى أقصى بقعة من بقاع الأرض وما هو بنائر ولا محارب ولا عرف له الناس موقفاً يدعو فيه بدعوة الجاهلية الأولى ، أو ينطق فيه بكلمة الدم التي ينطق بها الناثرون في كل شعب وأمة ، ليستثيروا بها حفاظ النفوس ، ويدفعوا بها الرجال الى مواطن الموت أين هو الجيش الذي قاده لمحاربتكم ، وأين هي الجموع التي سلحتها وزحف بها عليكم ، وأين هي الثورة التي أشعل نارها ، أو الفتنة التي أحيأ مواتها ، فتعاقبوه هذا العقاب الشديد الذي اعتدتم ان تعاقبوا به زعماء الثورات ، وقواد المؤامرات ، لا بل إنكم ما عاقبتم زعماء أعدائكم الذين رووا الارض بدمائكم ، وغطوا وجهها بأشلائكم ، ونالوا منكم أشد ما ينال محارب من محاربه بمثل هذا العقاب المؤلم الشديد ، وقد كنتم تزعمون ويزعم كثير من الناس لكم أنكم أمة العدل والقانون ، وان الشمس لا تطلع في مدار من مدارتها على محكمة مثل محكمتكم ، وقضاة مثل قضاتكم ، وميزان قسط وانصاف مثل ميزان قسطكم وانصافكم

ان الرجل لم يكن جباناً ولا رعيدياً ، ولا من المغرقين في حب حياتهم ، أو الضائنين بها على مواقف المجد والشرف ، ولو شاء أن يشعل نار الثورة في كل مكان ، وأن يقود الرجال الى مواطن الموت لفعل ، ولكنه لم يفعل ، ولا فكر في شيء من ذلك ، لأنه من فريق الدعاة ، لا من فريق الثوار ،

ولأنه رجل عاقل حكيم لا يخطو الخطوة الواحدة حتى يقدر لها موضعها ، وكانت لهجته الدائمة التي لا تفارقه في جميع مواقفه ومشاهدته الدعوة إلى السكون والمهدوء ، والعمل في دائرة القانون والنظام ، والمطالبة بالحقوق الوطنية بالطرق المشروعة السائفة ، أي إنه كان رجل حجة وبرهان ، لارجل نزال وطمعان ، فلماذا لم تعرفوا له هذا الشعور الطيب الشريف الذي كانت تشتمل عليه سريرة نفسه ، ولم لم تحرموا فيه تلك العاطفة الطاهرة الكريمة التي كانت تندفق من بين جنبه شرقاً ونبلاً ، وتسيل رحمة وإحساناً إنكم أقوياء جداً ، ما نازعكم في ذلك منازع ، وها هي جيوشكم وأساطيلكم وأسلحتكم ودباباتكم وطياراتكم تملأ البحار والقفار ، والسهول والجبال ، واتهامم والنجد ، والشوارع والاروقة ، والاجواء والآفاق ، فماذا عليكم لو أنكم تركتم الرجل في مكانه هادئاً مطمئناً ، لا تهيجونه ولا تزعجوناه ، حتى اذا أثار عليكم الثائرة التي تخشونها لجأتم الى قوتكم فقمتموها كما تفعلون اليوم ، وقد قامت لكم الحججة عليه ، واعتصمتم في أمره باليقين الذي تطمئن اليه نفوسكم ، وتنتفع به حجة المؤاخذين لكم ، والناقين عليكم ، وان كانت الاخرى كفيتم أنفسكم وكفيتمونا معكم هذا الشر المستطير بيننا وبينكم ، وحقنتم تلك الدماء التي سالت في بطاح الارض بلا جريرة ولا سبب

تؤكد لكم يا قوم أن الامة المصرية لم تكن آلة في يد ساعد باشا يصر فيها كيف يشاء كما وهمتم ، أو كما أوهمكم ذلك الضعفاء منا ، وان روح الوطنية المنتشرة فيها ليست روحاً صناعية كاذبة يحميها وجوده ، ويميتها نفيه ، وان نفيه الى أقصى بقعة من بقاع الارض ، بل الذهاب به الى مصير أعظم ويلا

وهولاً من هذا المصير ، لا يحل عقدة واحدة من عقد المسألة المصرية ، ولا يغير وجهها واحداً من وجوهها ، ولا ينتقل بها خطوة من مكانها ، أى إنه لا تسمح للمستوزرين بتأليف الوزارة التي يريدونها ، ولا براحتهم وهدوئهم فيها إن هم ألفوها ، ولا يفسح لأولئك القوم الذين تسمونهم المعتدلين ، ونسميهم بالمساكين ، مجالاً أوسع من المجال الذي يضطربون فيه ، ولا يفتح في جدار الوطنية ثغرة صغيرة تتمكن مكيدة المشروع الكرزنى أو الملهرى من الانحدار منها ، وانكم لم تستفيدوا من كل ما علمت شيئا سوى انكم ظلمتم الرجل وبؤتم بآئمه ، لا اكثر من ذلك ولا أقل

ماذا جنى سعد باشا عليكم سوى أنه كان يطالبكم بحقه وحق بلاده بالحجة والبرهان ، ولا يوجد في تاريخ من تواريخ الأمم القديمة أو الحديثة قانون متمدين أو متوحش يعتبر هذا العمل جريمة يعاقب عليها صاحبها بازعاجه من مأمنه ، وإقصائه عن أرضه ، ووضع ذلك السد المنيع بينه وبين جمال الحياة ورونقها ؟

لِمَ تنتزعونه من سرير نومه قبل أن تنبعث الطير من وكناتها ، وتطيرون به الى ذلك المنفى القصى البعيد الذى لا يعلم إلا الله ما يكون مصيره فيه ، وما هو بقاتل ، ولا سارق ، ولا مختلس ، ولا داع الى ضلالة ، ولا قائم بفتنة ، ولا طالب شيئا سوى ان يمشى هو وقومه أحراراً كما تعيش الطيور في أجوائها ، والسواثم في مراتعها ، والأسماك في دأملها ؟

لم لم ترحوا شيخوخته ومرضه ، وأنه رجل أعزل ضعيف لا يملك من القوى غير لسانه الذى ينود به عن وطنه وقومه ، ومتى كانت الألسنة والاقلام جيوشاً وجحافل تنازلها الجيوشُ والجحافل ؟

لم لم تحاجّوه وتمنعوه بحقكم الذى تزعمونه لانفسكم بدلا من أن تقولوا له « إما الصمت وإما الموت »

ما أغرب شأنكم أيها القوم! وما أعجب تصوراتكم! أفيما بين يوم وليلة تنقلبون معنا من أصدقاء أوفياء تجالسونا على منضدة واحدة لتفاوضنا على قاعدة الحرية والمساواة ، والود والاخاء ، الى أعداء حاقدين واجدين ، تسفكون دماءنا ، وتمزقون أشلاءنا ، وتشردون زعماءنا تحت كل نجم وكوكب ، وموقفنا موقفنا ، لم يتغير ولم يتبدل ، سوى اننا وقفنا لحظة أمام المشروع الذى قدمتموه الينا نعم النظر فيه ، هل هو استقلال حقيقى كما تقولون ، أم شيء غير ذلك تسمونه استقلالا

نقسم لكم لقد جعلتمونا نرتاب فيكم ، وفي كل ما تطلع عليكم شمسكم ، وتنفى عليه ظلالكم ، وفي الريح اتى تهب من أرضكم ، والماء الذى ينحدر من بحركم ، بل وفي العلم الذى تشتمل عليه مدارسكم ، والمحور الذى تدور عليه مدنيتكم ، ولقد مرت بنا أيام كنا لا نتمنى على الله فيها سوى أن نصل فى المدينة الى الذروة التى وصلتم اليها ، فقد أصبحنا ولا أبغض الينا من التشبه بكم ، والتخلق بأخلاقكم ، والسير على آثاركم ، مخافة أن تصبح مدنتنا فى مستقبل أيامها مدينة وحشية لاعهد فيها ولا ذمام

سنأكل الشيح والقيصوم ان عز الطعام الا من أيديكم ، ونلبس الجلود والفراء ان أقفرت الارض الا من مصانعكم ، ونشرب الملح الأجاج ان أبى العذب الزلال ان ينبع الا فى أفقكم ، ونعيش فى الظلمة الداجية ان أبت الشمس أن تشرق الا من آفاقكم ، وسنخلع عن أرضنا ثوب الخصوبة والجمال ، ونلبسها ثوب القحط والجذب ، لنقطع السبيل على مطامعكم ، ونكدر

عليكم صفاء العيش بين ظلالها وأموائها ، غير شاكين ولا متبرمين ، فلا
خير في نعمة يكدرها الذل ، وبعداً لماء لا يشربه شاربه الا ممزوجاً بدم
ان في السماء إلهاً ، وان في الأرض عدلاً ، وإن العناية الالهية التي
تضم تحت أجنحتها ضعف الضعيف ، وبؤس البائس ومظلمة المظلوم ، أرحم
من ألا تحفل بهذه الدموع التي تذرفها الأمة حزناً على شيخها الشهيد المظلوم
رويدك حتى تنظري عمّ تنجلي غمامة هذا العارض المتألق

إلى سعد باشا*

في منفاه

في الساعة التي نزلت فيها إلى قاع السفينة « نوراليا » لتفارق هذا
العالم كله إلى جزائر « سيشيل » سعد خصوصك المستوزرون إلى كراسي
مناصبهم فرحين متهللين يهني بعضهم بعضاً ، ويسم بعضهم إلى بعض ،
ولا أعلم هل تلك الحجرة الخفيفة التي جالت في وجوههم في تلك الساعة
كانت خالصة كلها للسرور والغبطة ، أم كان يمازجها شيء للخجل والحياء ،
ولعلها كانت الثانية ، فاني من لا يعتقد أن الضمير الانساني إذا جمدينتهى
به جموده إلى الموت

أنت سجين وهم مطلقون ، أنت معذب وهم ناعمون ، أنت مستوحش
منفرد في قفرة جرداء لا أنيس لك فيها ولا سمير إلا بضعة أفراد مثلك

* كتبت على أثر سفر سعد باشا من عدن الى سيشل تمهيداً لتأليف الوزارة
الثروتية وتنفيذ تصريح ٢٨ فبراير

مستوحشين منفردين ، وهم مؤتسئون بالعيش في قصورهم وبساتينهم ،
وملاعبهم ومسارحهم ، بين نسأهم وأولادهم ، وصحبهم وخلانهم ، أنت
مكتئب حزين يتقاسم قلبك ههنا ، هم نفسك ، وهم قومك ، وهم فرحون
متهللون يطفرون ويمرحون ، ويطيرون بأجنحة سرورهم وحبورهم في كل
جو وأفق ، لا يخالط نفوسهم هم واحد

ولكن هل أنت على ذلك شقي؟ وهل هم على ذلك سعداء؟

لا ، لقد كانت لهم أمنية أن تغيب عنهم فيغيب عنهم اسمك وذكرك ،
وضوضاؤك وجلبتك ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فالنفوس نائرة ،
والقلوب واجدة ، والهتاف باسمك يملأ الآفاق والاجواء ، والدعاء بئارك
يلاحقهم في كل مكان يسرون فيه ، وعيون الحقد والبغضاء تضرب حولهم
نطاقاً نارياً لاسبيل لهم إلى التفلت منه ، والخروج من دائرته ، فأنت الحر
الطليق ، وهم الأسراء المسجونون ، ولكنهم يتجلدون ويصابرون

أنت تعيش من فضيلتك وشرفك ، ومن رضاك عن نفسك ، واغتباطك
بإداء واجبك ، ومن راحة ضميرك واستقراره ، وهدوء نفسك وسكونها ،
في أرحب من رقعة الأرض ، وأفصح من ديباجة السماء ، وهم يعيشون من
وخزات ضمائرهم ، وقلق نفوسهم ، ووساوس صدورهم ، وخوفهم على تلك
القيامات الملفوظات التي هي كل ما ظفروا به من حياتهم أن تهب عليها
عاصفة من العواصف فتطير بها وتطير بهم معها ، ومن شبحك الهائل الخيف
الذي لا يفارق مضاجعهم ، ولا يبرح يقظتهم ومنامهم ، ولا يزال يتمثل
لهم في طعامهم الذين يطعمون ، وشرابهم الذي يشربون ، وفي جميع ما تمتد

اليه عيونهم ، وتتصل به اسماعهم ، في أضيق من كفة الخابل ، وأضنك من
عيش السجين

لا سجن في الدنيا غير سجن النفس ، ولا حرية فيها غير حريتها ،
وليست سعادة المرء بمقدار ما يحيط بجسمه من الفضاء ، بل بمقدار
ما يحيط بنفسه منه

فما سجنك الذي تعيش في جوه الموحش المكتئب ، وبين جدرانته
المتقاربة المتدانية ، بما نك من أن تطير بنفسك العالية الخفاقة في ما تشاء
من الآفاق والاجواء ، وأن تتمتع برؤية هياكل مجدك وعظمتك المقامة
لك على ضفاف النيل من طيبة الى الاسكندرية ، وأن تسمع دقات القلوب
الخفاقة بجبك ، وأحاديث النفوس الهاتفة بذكرك

وما فضاؤهم الرحب الفسيح الذي يحيط بهم بمجدٍ عليهم شيئاً إذا
حاولوا الحركة والاضطراب فيه ، لأنهم يعلمون أنهم يعيشون في أمة قد
وتروها وآسفوها ، وغرسوا الحقد والبغضاء في صدورها ، فهم على قوتهم
وبأسهم ، وعلى ضعفها وتجردها من كل سلاح وعدة ، يخشونها ويخافونها ،
ولا يطيقون أن يحتملوا نظراتها النارية التي تفلح وجوههم ، ولا صرخاتها
الدموية التي تدوى في آذانهم ، فهم دائماً فارّون مطارّدون كأنهم بعض
المجرمين ، لا عمل لهم في حياتهم سوى أن يسألوا أنفسهم أين يعيشون
وكيف يعيشون ؟

انهم لم يريدوا مطاردة جسمك ، بل نفسك ، ونفسك باقية في مكانها
لم تبرحه ، ولم يعتقلوك من أجلك ، بل من أجل القضاء على الروح الوطنية

من بمدك ، والروحُ الوطنية ناميةٌ زاهرةٌ تضربُ أعراقها في أعماق القلوب ،
وتهفو ذوائبها في آفاق السماء ، ولم ينقموا منك حياتك ولا وجودك ، بل
وقوفك في وجه متعتهم بمناصبهم التي هي كيان حياتهم ، وقوام أمرهم ، والتي
لا سبيل لهم إلى العيش إلا في ظلها ، ولا الحياة إلا في دائرتها ، ومناصبهم
منغصة مهدة هي هامة اليوم أو غد

فهم لم يفقدوا إلا وجهك ، ولم ينالوا إلا من جسمك ، ولم يحصلوا في أيديهم
من كل ما عملوا إلا على إثم الجريمة وعاها

آه ياسيدي لو تيسر لك أن تراهم لرأيت قوماً معذنين متألين ، حائرين ،
ذاهلين ، لا يهتأون في نوم ولا يقظة ، ولا يهدون في سكون ولا حركة ،
قد ضاقت بهم الحيل ، وتشعبت بهم السبل ، وانتشرت عليهم الآراء
والأفكار ، لا يملكون ماذا يأخذون وماذا يتركون ، ولا عمل لهم في حياتهم
سوى أن يسألوا أنفسهم ليلهم ونهارهم ألا يستطيع هؤلاء الناس أن يرضوا
منهم بدون عودتك ، وعودتك موتهم الأحمر ، وشقاؤهم الأكبر

ينثرون الذهب على الناس ثراً ليتأفوهم ويستمدنومهم ، فيلتقطونه
وهم يلعنونهم ، لأنه ما لهم قد سلبوه منهم ثم نثروه عليهم

يوزعون الرتب والنياشين على الخاملين والمغمورين ليكونوا أعوانهم
وأنصارهم ، فيمنحونهم من ألسنتهم ووجوههم ، مالا يمنحونهم من قلوبهم
وأفئدتهم ، لأن الحب لا يشتري بالأسماء والالقب

يخلعون الوظائف الكبرى والمناصب الخطيرة على صفار الموظفين
وأحدائهم ليخلبوهم ويهروا عقولهم ، فلا يصنعون لهم شيئاً سوى أن

يجاملوهم في مجالسهم ببعض ما يحبون ، فإذا خرجوا من عندهم خرجوا هازئين بهم ساخرين

يتاعون أقلام فقراء الكتاب ويؤسائهم ليكتبوا لهم ما يحط من شأنك ويرفع من شأنهم ، فيفعلون كارهين متبرمين ، لأن القلم لا يجد لذة المراح والجولان إلا في ميدان الصدق والاعتقاد

يصيحون في الناس بلهجة الخبثاء الماكرين أبشروا أيها الناس فقد جئناكم بالاستقلال الذي هو خير لكم من سعد ، فيجيبونهم بهدوء وسكون لو كان صحيحاً ما تقولون لكان سعد أول من يتمتع به لأنه صاحبه

يخلفون لهم بالله جهد أيمانهم أنهم لا يريدون بهم إلا خيراً ، ولا يضمرون لهم إلا ما يحبون ، فيقولون لهم ولماذا اذن نفيتم سعدا ؟

يحاولون بكل ما يعرفون من الوسائل أن يفصلوا بين قضيتك وقضية مصر فكأنما يحاولون الفصل بين الشمس وشعاعها ، والنار وحرارتها ، والمقدمة ونتيجتها

يصخبون أخيراً ويحتدمون ويقولون إن التشبث بعودة سعد مسألة شخصية ، فتنجاوب الاصداء من كل ناحية هبوا أن الأمر كما تقولون ، وهل تشبثكم بمناصبكم ، وعضكم عليها بالنواجذ ، ومخاطر تكم بكل شيء في سبيلها ، مسألة غير شخصية ؟

فانت يامولاي قدى أعينهم ، وغصة حياتهم ، وشغل قلوبهم وأفتدتهم ، والحجة القائمة عليهم ، أحسنوا أم أساءوا ، أعطوا أم منعوا ، نفعوا أم أضروا ، ولقد تحمدتهم نفوسهم أحياناً بالتخلي عن تلك المناصب الشقية وتوديعها إلى الأبدسامة وضجرا ، وضيقاً وحصرًا ، ولكن يحول بينهم وبين ذلك

علمهم أن الأوان قد فات ، وأن الأمة لا تغفر لهم ذنوبهم ، ولا تقبل لهم عثراتهم ، وأنهم لا يستطيعون أن يجدوا في فضاء الأرض ذات الطول والعرض ظل حصاة يلجأون إليه من نقمه الأمة وغضبها ، فلا يجدون لهم بدمان أن يستمروا قابعين وراء تلك الأكمة التي تحميهم وتندود عنهم ، وربما كانوا يبكون من وراءها دما

فمثلهم كمثل الفارّة من بيت أبيها إلى بيت خليلها ، يلحقها الندم ، وتضيق بها ساحة العيش ، فتودّ لو رجعت إلى بيتها الأول ، ولكنها لا تستطيع وكأنهم بسادتهم وحماهم وقد ملوهم وسئموهم ، وضجروا بكائهم ، لأنهم مامنحوهم هذه المناصب جبا وإيثارا ، أو منة وفضلا ، بل ليمهدوا لهم السبيل إلى ذلك الاتفاق الذي يريدونه ، ويقوموا لهم بوظيفة تحويل شعور الأمة إلى سياستهم ، واقتيادها إلى حظيرتهم ، من طريق الحيلة والكيد ، لامن طريق القوة والعنف ، وقد عجزوا عن ذلك ، فلم يبق لهم سبيل إلى البقاء

وكذلك ينتقم الله لك منهم يامولاي انتقاماً تهتز له أقطار الأرض ، وتضطرب له أكناف السماء ، وكذلك يسجل لهم التاريخ في صفحاته من العار والشنار ما سجل لأمثالهم من الخارجين المارقين
مولاي !

لا الشمس الطالعة من مشرقها صفراء كالذهب تنشر الاضواء في الآفاق ، وتعايبت بأشعتها اللامعة المتلألئة زوايب الأشجار ، وقمم الجبال ورؤوس الهضاب ، وتبعث الازهار من أكلماها ، والطيور من أوكارها ولا البدر السائر في سمائه بعظمته وجلاله بين حاشية من كواكبه

ونجومه ، يمسح بليقته الفضية جبين السماء ، ويمزق حجب الظلام عن
وجه الغبراء

ولا الربيع المقبل في حلق زهوره ورياحينه ، ومطارف غدرانها
وجداوله ، يوشى بساط الأرض بأبدع الألوان وأبهأها ، ويملاً الفضاء
الرحب بأطيب الروائح وأعبقها

ولا الطيور الصادحة في أفنانها توقع نغماتها على خرير الماء ، وترجم
في توقيعها عن شجو النفوس وحنينها ، وخفقان القلوب وأنينها
ولا أحلام الحياة اللذيذة المنبعثة في النفوس انبعاث الراح في الأجسام ،
تحيي موتها ، وتثير نشوتها ، وتمزج أعطافها ، وتنديقها حلوة المني ، ولذة
الأمل

ولا الدنيا وجمالها ، والأرض وبهجتها ، والسماء وزينتها ، والبحار
وروعتها ، والمروج وخضرتها ، والأزهار ونضرتها ، بقادرة على أن تنسينا
أيامك الغر البواسم التي كانت غرر الدهر وحجوله ، وزينة الدنيا وبهجتها ،
ولا يستطيع أن تنزع من قلوبنا مرارة الحسرة على فراقك ، واللهف إلى
لقاءك ، فتنى يجمع الله بيننا وبينك !

لا أوحشت دارك من شمسها ولا خلا غابك من أسده

في أي سبيل هذا*

أفي سبيل تلك الكلمة التافهة السخيفة كلمة « الاستقلال » التي زعمتموها والتي لا تساوي ثمن قطرة المداد التي كتبت بها ، يقضى سعد باشا زعيم الامة ورئيس نهضتها ونخر تاريخها الحاضر أيامه في ذلك المنفى البعيد الموحش عليلا . مذبلا لا يجد بجانبه إنسانا واحدا يعلمه ويعطف عليه

أفي هذه السبيل تمتطى زوجته الشيخة المريضة متن المحيط سبعة أيام تحت رحمة القضاء ، وبين شقي مقص الفناء ، حتى تصل اليه في معتزله لعلها تستطيع انقاذه

أفي سبيل أ كذوبة باردة لا يصدقها طفل ولا ينخدع بها أبله يضحى بهذا الرجل العظيم هو وجميع أنصاره ورجاله ما بين منفي مهجور ، وسجين مقبور ، وواقف على حافة الهوة يوشك أن يتردى فيها !

أفي سبيل متعة طائفة من الكسالى العاجزين لا يتجاوزون المائة عدا ببعض مشتهيات كمالية لا يقتلهم فقدها ، ولا يحبيهم وجودها ، تلبس أمة كاملة ثوب الحداد الدائم عل رجالها المبعدين ، وزعمائها المنفيين ، وشبانها المعتقلين ، وأفلاذ أ كبادها المقبورين ، ففي كل دار رنة وزفير ، وفي كل ساحة مناخة و أتم !

أتعلمن فيم تدرفن دموعكن أيتها الامهات الشكالى ؟ وفيم تصعدن زفرا تكن أيتها الزوجات البائسات ؟ وفيم تختلفن صباحكن ومساءكن إلى

* كتبت على أثر سفر صاحبة العصمة السيدة الفاضلة حرم سعد باشا إليه في جبل طارق لتشاركه في آلامه التي كان يفاسيها هناك

أبواب السجون مرة وأفنية القبور أخرى أيتها الارامل والايامى ؟
 إنكن تفعلن ذلك كله في سبيل موظف يشتهي درجة أعلى من
 درجته، وآخر يطلب دارا أوسع من داره، وآخر يريد طعاما أدم من طعامه،
 ووجهه يخشى أن يفقد نعمة البشاشة التي اعتاد أن يراها في وجه الوزير ،
 وعين يخاف أن يخسر الجلسة التي يتمتع بها في حضرة المدير
 أولئك هم المعتدلون الذين لم يعتدلوا في شيء الا في سياستهم، ولكنهم
 متطرفون في كل شيء من مطاعمهم وشهوات نفوسهم

في سبيل هؤلاء الشرهين النهمين يتألم شعب بأكمله ، ويقاسى
 من صنوف العذاب وأنواع الآلام مالا يطيقه بشر ، فما أغلى ما بدلنا ،
 وما أرخص ما أخذنا

ما كانت حياة الامة متوقفة في يوم من أيامها على أن يتمتع هؤلاء
 الكسالى البلاد بما يتمتعون به، بل ما كانت متوقفة على وجودهم في قيد
 الحياة ، ولكنها في أشد الحاجة إلى بقاء زعمائها وأبطالها بن ظهرانيها،
 يلمون شعها، ويجمعون شملها، ويجاهدون في سبيلها، ويحيون الآمال في نفسها،
 ويشاركونها في نعمائها وأسائها، ويهونون عليها همومها وآلامها، ويحتضنونها
 الى صدورهم الطيبة الرحيمة في ساعات شدتها ولأوائها، فتستشعر برد الراحة
 وسكون العزاء

وصفت إنجلترا مصر بأنها مستقلة !!!

هذا كل ما يقولون ، وهذا ما يريدون أن يعزونا به عن قتلنا
 وجرحنا، وسجنائنا ومعتقلينا ، وجميع ما بدلنا من دموع ، وكابدنا من آلام ،
 نيفا وأربعين عاما

يخ لهذا الوصف الجميل البديع !!!

متى كنا أيها الصغار النفوس والضعاف العزائم والههم في شوق الى الاوصاف والنعوت ، والاسماء والالقاب ، ومتى تخلقنا بأخلاق النساء فنتهج بكلمات الغزل والنسيب وجمل المدح والثناء ؛ ومتى ضنّ الانجليز علينا بهذه الكلمة في عهد من عهودهم الماضية والحاضرة ، أوضنوا بها على شعب من الشعوب التي يستعمرونها ، ويملكون عليها أنفاسها ، فنعدها كلمة جديدة لم نسمع بها من قبل ؛ وهل كان موضوع النزاع بيننا وبينهم حروفا وكلمات ، فينتهي أمره بحروف وكلمات ؛ وهل بلغت بنا ضعة النفس وهوانها ، وانحطاطها وإسفافها ، أن نزل عن طلب الاستقلال الى الرضا بكلمة هي أشبه الاشياء بكلمة (الفندق) التي أمر أحد الملوك الظالمة بكتابتها على باب سجنه ارضاء لخاطر المسجونين أو سخرية منهم !

إننا لا يكفيننا أن يعترف الانجليز باستقلالنا ، بل لانطلب اليهم أن يعترفوا لنا به ، لاننا لانريد أن يكون مبنيا على اعترافهم ، ولانحب أن نعطيهم الحق في سلبه واعطائه ، وانما نطلب اليهم أن يفارقوا أرضنا ساكتين صامتين لا يقولون لنا خيرا ولا شرا ، فان فعلوا فذاك ، والا فوقفنا معهم موقفنا مذ نزلوا بأرضنا حتى اليوم

أما الاكذوبة الكبرى التي لم ينطق بمثلها ناطق منذ خلق الله اسم الكذب حتى اليوم فهي قولكم اننا أخذنا منهم ولم نعطيهم ، وهل أعطى أحد في العالم مثل ما أعطينا في مثل ما أخذنا ؟

ألم نعطيهم راحة نفوسهم من القلق والخوف على مستقبلهم في مصر ، وراحة أسماعهم من ضوضاء المطالبة بالحقوق وجلبتها ، وراحة أمزجتهم من

تكديرها برؤية أشباح الساخطين والناقين !

ألم نعظهم أن الادارة المصرية قد عادت لهم الى ما كانت عليه في عهدنا الاول، وأصبحت خاضعة لأمرهم في كل ما يريدون ويقترحون ، ولا نعلم ماذا نقدم لهم غداً فوق ذلك ؟

ألم نجعل لهم بين فوائد السلطة وثمراتها، وبراءة أيديهم من تبعاتها وآثامها، فهم يقضون في كل شيء من حيث لا يتعلق عليهم منه شيء ؟

ألم نعظهم ألا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن في دائرة من الدوائر السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولا يوضع قانون، ولا مادة في قانون، ولا يثاب مثاب، ولا يعاقب معاقب، ولا يصادق صديق، ولا يعادى عدو، الا في سبيلهم ، وتنفيذاً لأمرهم ، ونزولاً على حكمهم، وكأنيهم ما أرادوا شيئاً، ولا اقترحوا أمراً

ألم نسلم اليهم زعماءنا وعظماؤنا الذين كانوا يهددون مركزهم في مصر، أو ينفصون عليهم حياتهم فيها على الأقل، ينفون منهم من أرادوا، ويسجنون من شاءوا ، غير حافلين ولا مكترئين ، لا يزعمهم مزعج ، ولا يقلقهم مطالب

ألم نعظهم تمزيق شملنا ، وتفريق كلمتنا، وانقسامنا على أنفسنا ، وفساد كثير من أخلاقنا القومية في كثير من بيئاتنا العليا والدنيا، ونزول بعض أشرافنا المحتشمين الى درك الجاسوسية الدنيئة بعد أن كانت في نظرهم العار الدائم الذي لا يحويه حتى الموت ؟

هذا ما أعطينا ، أما ما أخذنا فهي تلك الحروف السبعة التي لم قدموها

الينا مكتوبة بأسلاك الذهب ، ومحلاة بأحجار الياقوت والماس ، لما سوت
قطرة دم واحدة من ذلك البحر الزاخر من الدماء التي قدمنا
وهل كانوا يطلبون عندنا أكثر من ذلك ؟ أويقترحون على دهرهم أمنية
فوق هذه الأمنية ؟ أو كانوا يرضون ببذل مستعمرة كاملة من مستعمراتهم
للوصول الى هذه الغاية التي وصلوا اليها ؟

أنتم وحدكم أيها المعتدلون المسئولون عن هذه الصفقة الخاسرة ، فما
رزننا بما رزننا به الا من طريقكم ، وما ذهب ما ذهب منا الا في سبيل مطامعكم
وشهواتكم

ردوا علينا أولادنا وإخوتنا وآباءنا وفلذات أ كبادنا من ضمنه منهم
القبور ، ومن اشتملت عليه منهم السجون ، فأنهم لم يضحوا بأنفسهم حين
ضحوا بها في سبيلكم ، وسبيل ما ربكم وشهواتكم ، بل في سبيل أمتهم ووطنهم
ردوا علينا زعماءنا وأبطالنا ، وقادتنا وعظماؤنا ، فأننا لا نبيعهم بغير
نمن ، ولا نقبل أن نلبس ثوب العار الدائم بتركهم في أيديكم

ردوا علينا دموعنا وآلامنا ، وقلق مضاجعنا ، وتسويد أجبانتنا ، وجميع
مجهوداتنا التي بذلناها أعواما طويلا حتى نزل بنا شؤمكم فأضاعها علينا ،
فكاننا لم نذرف دموعا واحدة ، ولم ندفن قتيلا واحداً

أعيدوا الينا وحدتنا وجامعتنا ، وتلك الايام الحلوة الجميلة التي كنا
نجتمع فيها كلنا في ميدان واحد ، تحت سماء واحدة ، نشترك في نغم الحياة
وبؤسها ، ونتقاسم سرورها وضراؤها ، ويمجد كل منا في حجر صاحبه المهاد
اللين الوثير الذي يضع رأسه عليه حين يدركه التعب ، وينال منه النصب
أعيدوا الينا سمعتنا وكرامتنا ، وذلك الصيت الحسن الجميل الذي كان

يرن في آفاق الارض رنين النغمات الموسيقية في أجواز الفضاء فيعود الينا
صداه حاملها البهجة لارواحنا ، والسرور لافئدتنا ، والعزاء الجميل عن
مصائبنا وآلامنا

* * *

لا . لا . لا تعيدوا الينا شيئاً ، فاننا لم نفقد شيئاً
مالنا ولكم ولعقودكم واتفاقاتكم ، ودساتيركم ومجالسكم ، ولما تأتمرون
به في خلواتكم وجلواتكم ، فلنا شأننا ، ولكم شأنكم
الأمة هي الأمة لا يعينها من ينفصل عنها أو يخرج عليها ، ولا يفت
في عضدها أن مائة من أفرادها قد انتقلوا الى الصفوف المحاربة لها ، فهي
بقوة عزيمتها ، وجلد نفوسها ، وصبرها واحتملها ، وامتداد حبل آمالها وأمانيتها ،
ورسوخ ايمانها في أعماق قلبها ، قادرة على أن تستقبل أعظم قوة في العالم ،
وتثبت في وجه كل عاصفة تهب عليها كيفما كان شأنها ، فما انتصر المنتصرون
يوماً بقوة سلاحهم وعدتهم ، بل بقوة يقينهم وايمانهم ، وما أغنى السلاح يوماً
عن أصحابه شيئاً اذا كانت النفوس خائرة متضعضة ، ولا ضرها فقدانه
فتيلاً اذا كانت النفوس في حصن حصين من قوة عزيمتها ، وثبات عقيدتها
سيهدم عما قليل كل ما بنيتم ، لان الأمة لم تشترك في بنائه ، وسينقض
كل ما أبرمتم ، لان الأمة لا تريد ابرامه ، وسيعود كل غائب الى داره ،
لان الأمة لا تتخلى عن أبنائها ، وما كتبت التاريخ في صفحاته قط أن أمة
من الأمم أرادت أمراً ، وأجمعت رأيها عليه ، فاستطاعت يد غير يد الله
أن تحول بينها وبين ما تريد

ثم ماذا؟*

لأنتم قادرون على أن تنالوا ثقة الناس، ولا الناس بقادرين على أن يمنحوكم ثقتهم، وقد أظلم الفضاء بينكم وبينهم حتى ما تستطيع الشمس الساطعة أن تمحو طبقة واحدة من طبقاته، فما بقاؤكم بعد ذلك؟

إنكم لم تقولوا للناس حين جلستم على هذه المقاعد إنكم تجلسون عليها مستبدين مستأثرين، لا تكثرنون لأمة ولا شعب، ولا تحفلون بسخط ولا رضا، بل قلم لهم انكم تنزلون على ارادتهم، وتحكمون باسمهم، ولا تقطعون أمراً من دونهم، أى انكم وكلاؤهم وعماهم، تبقون ما أرادوا بقاءكم، وتنصرفون حين يريدون انصرفكم، وها أنتم أولاء ترون أنهم قد ملوا بقاءكم، ووسئوا العيش معكم، فلم لا تتركونهم وشأنهم يتنفسون الصعداء في جو غير جوكم، ويطلبون لأنفسهم الحياة الطيبة في جوار غير جواركم

لم تخرجونهم وتضيقون صدورهم وأنتم تعلمون أن النفس الانسانية ان استطاعت أن تحتمل كل شيء فإنها لا تستطيع أن تحتمل ما يثير قلقها ووسواسها على وطنها ومستقبله

فكان الذين يهيجونها ويستثيرونها في هذا الشأن انما يريدون شقاءها وبلاءها، وما أحسبكم ترضون لانفسكم بذلك

دعوهم وشأنهم عسى الله أن يفرج عنهم كرتهم، ويكشف غمّاءهم، فربما كان مدخراً لهم في ضمير الغيب خير كثير لا يصل اليهم الا من

* كتبت عندما بلغت الشدة بالامة منتهاما في أواخر عهد الوزارة الثروتية

طريق غير طريقكم ، فارحومهم من أنفسكم ، واتخذوها يداً عند الله تؤجرون عليها في دنياكم وآخرتكم

ليت الذين يحيطون بكم من أصدقائكم وأشياعكم يسمحون لأنفسهم بأن يصدّقوكم الحديث عن حالة الامة اليوم ، ويصوروا لكم حقيقة شعورها واحساسها تصويراً صحيحاً ، لتعلموا أن نفسها تشتمل على هم لم تشتمل على مثله في عهد من عهودها الماضية ، وأن بيتاً من البيوت ، أو قصرأ من القصور ، لا يمكن أن يخلو من عين دامعة ، أو نفس واجمة ، أو فؤاد معذب ، أو قلب مقروح ، وأن الكتابة القائمة قد لبست جميع الوجوه كأنما قد قام بين الناس منذر ينذرهم بالرجفة الكبرى ، والنازلة العظمى ، وأنهم جميعاً يضحجون بالدعاء إلى الله تعالى أن يكشف عنهم نازلتهم ، ويفرج كربتهم

فسواء أ كانوا مصيبين في اعتقادهم أم مخطئين ، فالمنظر منظر مؤلم يستلين القلوب القاسية ، ويستندرف الدموع الجامدة

الحقيقة أن الامة تخافكم على نفسها وعلى مستقبلها أشد الخوف ، ويخيل اليها أن كواكب النخس قد ملأت في عهدكم أرجاء السماء فما يلوح بينها كوكب سعد واحد ، وربما كانت مبالغة في ظنها ، أو مغالية في رأيها ، ولكن ما العمل وهذا رأيها الذي تراه ، ولا سبيل لها أن ترى رأياً سواه ، ألا ترون أنها وقد بلغ بها الامر هذا المبلغ قد أصبحت جديرة بعطفكم ورحمتكم ، وأن تضحيتكم ببضعة مناصب في سبيل راحتها وهدوئها ليست بالشئ الكثير ، ولا الخطب الكبير ؟

إنها عجزت عن أن تصدق انكم أصدقاؤها وأولياؤها وأعوانها على أمرها الذي تعالجه ، بمدارات انكم أصدقاء عدوها وأولياؤه ، وأن السياسة

التي تجرى على أيديكم منذ جلستم على هذه المقاعد انما هي تنفيذ دقيق لسياسته التي وضعها ، وتمهيد متين لتلك الضربة القاضية الذي يسميها اتفاقا أو مخالفة ، وأنه يحوطكم بعنايته ورعايته ، ويندود عنكم ذوده عن قلاعه وحصونه ، وأنه ينفي ويسجن ويشرد كل من أردتم نفيه أو سجنه أو تشريده من زعماء الامة وعظائها ، فهي تخشى أن تنتهي تلك الصلة التي بينكم وبينه الى خرابها ودمارها، وما دمتم قد عجزتم عن أن تدلوا اليها بعذرکم في ذلك ، وتوضحوا لها سر هذا الموقف الذي تقفونه ، فأقبلوا أنفسكم من العمل لها لتعود لها سكينتها وراحتها

هبوكم نعمة من نعم الله عليها ، وهبوها عاجزة عن أن تخطو خطوة واحدة في سبيل حريتها واستقلالها الا اذا كنتم زعماءها وقادتها ، وهبوا السماء لا تمطرها الا اذا استسقتها بوجوهكم ، والارض لا تنبت لها الا اذا وطئتها أقدامكم ، ولكن ماذا تصنعون وهي لا تثق بكم ، ولا تأمن لكم ، ولا ترضى ان تسير معكم في الوجهة التي تسرون فيها ، أتسيرون وحدكم ؟ أم تُسيرونها على الرغم منها ؟ كلا الرأيين عبث لافائدة فيه ولا نتيجة له الاوقوف القضية المصرية في مكانها لا تخطو الى الامام خطوة واحدة ، وليس من الرأي ولا من المصلحة في شيء ان يتشبث القائد بركزه ، والجيش متردد عليه ، لا يطيعه ولا يدعن له ، والعدو على كئيب منه يلتمس غرته في كل لحظة ليقتمحها ، وان تكون كلمته الوحيدة التي لا ينطق بكلمة سواها « انى أعمل بضميرى »

ولا أحسبكم تقولون إن الامة هي تلك الفئة التي تضمها جدران

جريدة السياسة لانكم تعملون انها تلجأ اليكم دائماً لحمايتها من الامة ، فلا يمكن أن تكون هي الامة نفسها

قد انتقلت المسألة الآن وتغير وجهها تغيراً تاماً ، وأصبح البحث في كفاءة تمك وعدم كفاءة تمك ، واخلاصكم وعدم اخلاصكم ، وصحة رأيكم وفساده ، وصواب برنامجكم وخطئه ، عبئاً لقيمة له ، انما البحث في شىء واحد ، هل الامة حزبكم الذى تعتمدون عليه في بقائكم في مراكزكم وفي تنفيذ سياستكم التي تجرون عليها ؟

تلك هي المسألة ، والجواب عن ذلك : لا

اذن فاسمحوا لنا أن نقول لكم أن الامة أضن بوقتها من أن تنفقه في منازعتكم ومجادبتكم فأريحوها من الاشتغال بأمثال هذه التوافه ودعوها تشتغل بقضيتها الكبرى فهي أولى أن توجه اليها جهودها، وان تنفق فيها أوقاتها انها في حاجة الى توحيد كلمتها، ولمشعثها، وتنظيم سياستها، ووضع دستورها، وتكوين هيئتها النيابية، واصلاح شؤونها المالية والادارية والعلمية ، ورفع منارة عالية للعدالة والحرية تشرق على الأمة جميعها من أدناها الى أقصاها، فيستوى في الاستنارة بها الغنى والفقير، والقوى والضعيف، وصاحب القصر وصاحب الكوخ ، والوزير الجالس في كرسي وزارته ، والفلاح النائم في ظل سرحته ، ومن يمت الى القوة المسيطرة بسبب ، ومن لا يمت بسبب الا الى الله وحده ، وذلك كله موقوف على أن تكون لها حكومة تحبها وتمتزج بها ، وتنزل على حكمها ، وتعينها على ما هي بسبيله ، وتحسن الادلاء إليها باعذارها وضروراتها ان اعترضتها عقبة من العقبات في طريقها

لا بل ابقوا في مرا كزكم كما أنتم ، ولكن على شرط واحد ، هو ألا تتعرضوا للقضية مصر السياسية بوجه من الوجوه ، ولا تشتغلوا بوضع أى أساس من أسسها ، ولا تضعوا أية عقبة فى طريق المشتغلين بها ، أو اعلنوا اعلانا صريحا بان المسألة المصرية مسألة حكومية محضة لا دخل للامة فيها ، ولا شأن لها بها

تؤكد لكم انكم لو فعلتم لما اختلف عليكم اثنان ، ولا ثقل مكانكم على كائن من كان ، ولا حدث نفسه محدث بازعاجكم واغلاقكم ، أو مطالبتكم بتبرك مرا كزكم

فهل ترون بعد هذا اننا قوم شخصيون لا نبغى الا مشاغبتم ومناواتكم حسداً لكم على مرا كزكم وطلبنا للحلول محلكم فيها ؟

تحية الرئيس*

مرحبا بالبدر الطالع فى جنح ليلة مدلهمة ضل بها السارى لا يعلم أى طريق يسلك ، ولا أى مذهب يذهب ، حتى أشرف عليه من سمائه فسجد لله حمداً وشكراً

مرحبا بالنبع الصافى ظفر به الظامى الهيمان بعد مسير أيام طوال فى صحراء محرقة لا يرى لامعاً فى أرضها غير السراب ، ولا بارقا فى سمائها غير الشعاع ، فأقبل عليه يرشف من زلاله العذب حتى هدأ غليله ، وبردت جوانحه

* كتبت يوم رجوع سعد باشا من منفاه

مرحبا بالمرزنة الهاطلة أصابت تربة قاحلة طال عهدا بالرى والحياة ، فما هو الا ان جرى الماء في عروقها ، وتغلغل في صميمها ، حتى اهتزت وربت ، واستحالت من قفرة جدباء ، الى روضة خضراء

مرحبا بقميص يوسف تلقاه يعقوب. بعدما ابيضت عيناه من الحزن ، وأظلم الفضاء بينه وبين الحياة، فانتعشت نفسه، وأضاءت روحه، وارتد بصيرا مرحبا بالأب القادم على بنييه من غيبة منقطعة دارت عليهم فيها النحوس ، وتداولتهم البؤوس ، فلما لاح لهم سواده طاروا اليه فرحين مستبشرين ، وانشأوا يضمونه الى صدورهم ، ويندرفون بين يديه دموع الغبطة والسرور

مرحبا بالرجاء بعد اليأس ، والفرج بعد الشدة ، والانس بعد الوحشة ، واليسر بعد العسر ، والفكك بعد الاسر ، والابلال بعد الاشفاء ، والراحة بعد الاعياء ، والرحمة العامة التي يفيء الى ظلها الضاحون ، والنعمة الشاملة التي يتقلب في اعطافها المجدودون

مرحبا بالامة في رجل ، والعالم في واحد، والبطل الذي تمر به الحوادث الجسام التي تطير بالباب الرجال فيثبت ثبات الصخرة الصماء ، في وجه الرياح الهوجاء ، لا يشكو ولا يتبرم ، ولا يجزع ولا يتألم ، كأن المعنى بذلك كله سواه ، والمجاهد المخاطر الذي يضمهم فيقدم فلا ينثنى حتى الموت ، كأن الموت مأربه الذي ينتقيه من الحياة ، وكأن الحياة أحقر في نظره من حذائه الذي يحتديه ، والمخلص الوفي الذي لو عرضت عليه الدنيا بمخاضها على

أن يبذل فيها ذرة واحدة من تراب وطنه ، وقلامة ظفر من أظفار أحد مواطنيه ما فعل

ما هذه النظرة التي تجول في جميع الوجوه، وما هذه الهزة التي تتمشى في جميع الاعطاف ، وما لهذا الطفل الصغير يستطير فرحا وسرورا كأنما بشره مبشر بطلعة العيد ، وما لهذا الشيخ الهرم يهرع في مشيته ، وينشط في لفتته ، كأنما قد لبس برد الشباب مرة أخرى ، وما لهذه العجوز الفانية القابضة في كسر بيتها يخفق قلبها بين جوانحها خفقان السرور والغبطة كأنما قد مرت بخاطرها لحظة من ذكريات الصبا ، ولم تضرب الآفاق بالأعلام ، وتتلأألا الاجواء بالاضواء ، كأنما قد هبط الملائكة الاعلى الى حرم الارض بنجومه وكواكبه ، وأشعته وأضوائه ، ولم يموج الشاطئان من الاسكندرية الى اصوان بالجموع الفرحة الطرقة ، الراقصة الشادية ، كأنما قد فتحت لهم أبواب الجنان ، وقيل ادخلوها بسلام

لاعيد هناك ولا موسم ، ولا فراديس ولا جنان ، ولكنها أمة طيبة كريمة خرجت لتشكر للمنعيم عليها نعمته التي أسداها اليها ، ولتسرى عن نفسه بودها وعطفها آلامه التي كابدها في سبيلها ، وربما أضمرت في نفسها فوق ذلك أن تعتذر اليه عن تلك الذنوب التي جناها عليه بعض أفرادها ، وقد علمت أنه محسن كريم ، وأنه فوق أن يأخذ أمة بجزيرة فرد ، بل فوق ان يأخذ ذلك الفرد بجزيرة نفسه

خرجت لتشكر له انها كانت ممزقة الاديم أجناساً والوانا ، ومذاهب وأديانا ، فجمع شملها ، ووحد كلمتها ، ووقفنا جميعها في موقف واحد ، تحت

راية واحدة ، هي راية « المصرية » فاصبحت أمة واحدة
وانها كانت ضعيفة عاجزة تهمس بمطالبها ، همسا فصاح بينها صيحة
عالية ، فصاحت بصياحه ، فاخترق صوتها مسمع الخافقين ، فالتفت العالم
قائلاً : إن في تلك الزاوية الشرقية من تلك القارة السوداءً حادثاً جديداً
وانها كانت ممنوءة بثقة من المنحرفين المارقين يفتون في عضدها ،
ويعينون عليها ، فزمهر في وجوههم ، وكشر لهم عن مثل ناب الليث ، فارتدوا
الى أفاحيصهم ولم يستطيعوا الخروج منها بعد ذلك الا متسلاين مخافتين ،
والا بعد ان تنكروا في رداء غير رداهم ، واتخذوا لهم عنوانا غير عنوانهم
وأنها كانت تعيش تحت سيطرة حكومة لا تقيم لها وزنا ، ولا تقدرها
قدرا ، فلم يزل يطير بها في سماء العزة والكرامة حتى أصبحت تعيش بجانب
حكومة لا سبيل لها الا أن تنزل على ارادتها ، أو تنزل عن مقاعدها
وأن كتاب تاريخها الحديث كان خلوها الا قليلا من العظام التي تُدلى
بها الامم وتساجل بها أقرانها ، فسجل لها فيه من المفاخر في ثلاثة أعوام ما لم
يسجل لها منذ ثلاثين قرنا

وتشكر له فوق ذلك انها استطاعت بما بعث في نفسها من العزة
والكرامة ، والشرف والاباء ، ان تنتزعه من بين محالب أعدائه الاقوياء ،
فحمت بذلك صحيفة سوداء في تاريخ حياتها لو بقيت لكانت عارها الدائم
وسببها الخالدة

انا نحييك يا مولاي فنحبي فيك الشرف والنيل ، والهمة والشجاعة ،
والصبر والجلد ، والاخلاص والوفاء ، والتضحية الشريفة ، والالم

الصامت ، ونحبي فيك مصر القديمة لانك ولدها النجيب ، ووارث صفاتها
ومزاياها ، ومصر الحديثة لانك واطع أساسها ، وغارس غرسها ، ونحبي
معك تلك السيدة العظيمة المجاهدة الصابرة شريكتك في نعمائك وبأسائك
ومعينتك على همومك وآلامك ، وتستقبلكما استقبال النبتة الداوية ، للقطرة
الصافية ، والزهرة الذابلة ، للشمس الطالعة ، ونقدم لكما تحية تقدومكما قلوبنا
التي لاتحمل الاحبكما ، ولا تشتمل الا على الاخلاص لكما



